

حوليات

العدد الخامس - 2016

حوليات

ANNALES

N. 5, 2016

ISBN 978 - 614 - 8008 - 07 - 8



وقائع ندوة

النهوض باللغة العربية في زمن العولمة والتقدم التكنولوجي
بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية

دور البعثات الدبلوماسية العربية في النهوض باللغة العربية

كلمة سفارة المملكة العربية السعودية	**الأستاذ وليد بخاري**
كلمة اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو	**الدكتور هنري العويط**

النهوض باللغة العربية في زمن العولمة والتقدم التكنولوجي

مخاطر اضمحلال اللغة العربية في زمن العولمة وبعض الحلول المطروحة	**الشيخ الدكتور محمد النقري**
كيف ستكون العربية لغتنا الأم؟	**الدكتور لطيف زيتوني**
جدل اللغة والتشكيل المعرفي: قراءة «نصوصية» تناظرية بين العربية الفصحى ولغات التواصل الاجتماعي	**الدكتور مصطفى الحلوة**
الترجمة سبيلاً إلى النهوض باللغة العربية	**الدكتور بسام بركة**

كلمة المستشار الأستاذ وليد بخاري *

إن اللغة العربية لغة ضاربة الجذور في التاريخ وتعد من أقدم اللغات الحية ذات الموروث الحضاري والثقافي والروحي، وقد أصبحت العربية اليوم واحدة من أكثر اللغات انتشارًا في العالم حيث جعلتها هيئة الامم المتحدة واحدة من بين ستة لغات عالمية يتم التعامل بها رسميًا في الهيئة والمنظمات التابعة لها. وتعد المملكة العربية السعودية من أنشط الدول وأبرزها اعتناء باللغة العربية والإرتقاء بتعليمها كمًّا وكيفًا للناطقين بها وبغيرها.

إن المملكة وظّفت جهودها لإدخال اللغة العربية ضمن لغات العمل الرسمية المعتمدة في الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام 1973. وإن مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية هو من أبرز المراكز التي تمثل المملكة العربية السعودية خير تمثيل في الإنتماء الديني واللغوي، وفي نشر اللغة العربية في أنحاء العالم، بل يحسن القول أن هذا المركز يعد تتويجًا لجهود المملكة في الاهتمام باللغة العربية محليًا عربيًا وعالميًا.

ولا نقاش في أن اللغة العربية تعدّ بحق، أعظم كنز لحفظ تراثنا ولا تستغني حياتنا الحاضرة عن تلك الأداة اللغوية التي تشرح أهدافنا وهويتنا وحاجاتنا وأوضاعنا في الميادين المختلفة. اللغة العربية هي من أهم عناصر الهوية، التفريط بها تفريط بهويتنا التاريخية وقيمنا الثقافية؛ فكلّما اهتم الانسان العربي بلغته كان ذلك دليلًا على قوته ونهضته وأصالته.

إن الجانب الأهم هنا أن مسؤوليتنا لا تنتهي بمجرد الإحتفال والإحتفاء بهذه اللغة، لذلك يجب علينا جميعًا أن نهبّ لحماية هذه اللغة والحفاظ عليها كما اهتم بها سلفنا الصالح وثابر عليها وأوصى بالإلتزام بها، وأدعو أن يتحد الجميع يدًا واحدة لنشر هذه اللغة من خلال التكاتف والتضامن وتحت شعار «لغتنا تؤلّف بيننا».

* القائم بالأعمال في سفارة المملكة العربية السعودية.

كلمة الدكتور هنري العويط *

معالي الأستاذ ريمون عريجي، وزير الثقافة

سعادةَ المستشار الأستاذ وليد بخاري، القائم بأعمال سفارة المملكة العربيّة السعوديّة

أصحابَ المعالي والسعادة والفضيلة

أيّها الحفلُ الكريم

يسرّني أن أرحّبَ بكم جميعاً أجملَ ترحيبٍ وأحرَّه، باسم اللجنة الوطنيّة اللبنانيّة لليونسكو، في مستهلّ هذا اللقاء الثقافيّ الذي نقيمه في إطار احتفالنا باليوم العالميّ للغة العربيّة. واسمحوا لي أن أخصّ بالترحيب والشكر والتقدير معالي وزير الثقافة، الأستاذ ريمون عريجي.

ويطيبُ لي أن أعربَ عن سعادتنا بأن تكون سفارةُ المملكة العربيّة السعوديّة شريكتَنا في الدعوة إليه. وأمّا دواعي اغتباطنا بهذه الشراكة فكثيرة، وفي مقدَّمها العلاقاتُ التاريخيّةُ الوثيقةُ والوطيدةُ التي تربط بين بلدينا وشعبينا، ومن أبرز تجليّاتها الأخيرة، على الصعيدِ الوطنيّ، زيارةُ التهنئة بانتخاب العماد ميشال عون رئيساً للجمهوريّة، التي قام بها، عشيّةَ عيد

* رئيس اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو

الاستقلال، مستشارُ خادم الحَرَمين الشريفين، أميرُ مكّةَ المكرّمة، صاحبُ السموّ الملكيّ الأمير خالد الفيصل، والتي أكّدت على عمقِ الأواصر الأخويّة وائتلاف الرؤى والأهداف؛ ومن أبرز علاماتها، على الصعيدِ الثقافيّ، أولى حلقات «الملتقى الثقافيّ السعوديّ – اللبنانيّ»، التي عقدتموها، يا سعادةَ المستشار، بعنوان «عروبة الريحاني»، ونوّهتم خلالها، في معرضِ تذكيركم بالعلاقة بين أديب الفريكة ومؤسّس المملكة عبد العزيز آل سعود، بالوشائج التي «استمرّت في نسج تواصلنا وتقاربنا بين أصالةِ بادية الجزيرة العربيّة وشموخ أرز جبال لبنان...».

وإنّ ما نشعر به من سعادة مردُّه أيضاً إلى أنّ تنظيم هذا الملتقى يندرج في سياق ثقافة التعاون التي تؤمن بها لجنتُنا إيماناً راسخاً، وتدعو إلى نشرها وتعميمها في جميع الأوساط، وإلى ترجمتها في شتّى المجالات. فنحن نعرف حقّ المعرفة بأنّه لا طاقةَ لأيّ طرف، مهما عظُم شأنُه واتّسع حجمُ قدراته، على أن يتصدّى بمفرده للتحدّيات الكبيرة والكثيرة التي تواجهها دولُنا ومجتمعاتُنا عامّةً، وبصورةٍ خاصّة في كلّ ما يتّصل بمهمّة النهوض باللغة العربيّة. ونحن على يقينٍ تامّ بأنّ في التشبيكِ وتضافرِ الجهودِ وتكاملها، ما يؤهّلنا لاجتراح الحلول الملائمة والناجعة، وما يمدّنا بالمزيد من القوّة والفعاليّة لوضعها موضعَ التنفيذ.

ويجمع بيننا، نظرتُنا الواحدة إلى لغة الضاد، التي نرى فيها ركناً من أهمّ المشترَكات بين الدول والشعوب العربيّة، بل من أقواها وأثبتها على مرّ العصور، ومكوّناً جوهرياً وأساسياً في صُلب تراثنا وهويّتنا وثقافتنا. كما نلتقي أيضاً على وعي خطورة ما يُحدق بها، في زمن العولمة والتقدّم التكنولوجيّ، من أخطار خارجيّة وداخليّة تُضعف من مكانتها وتتهدّد ديمومتَها، وعلى إدراك مكامن الخلل في مناهجها وبرامجها التعليميّة، وما يشوب طرائقَ تدريسها من قصور.

ولذلك أولت اللجنةُ الوطنيّةُ اللبنانيّةُ باستمرار، هذا الملفَّ، ما يستحقّه من عناية واهتمام. وخيرُ دليلٍ على ذلك المؤتمراتُ والندواتُ وورشُ العمل التي نظّمتها، والأبحاثُ والدراساتُ التي أصدرتها، وتناولت فيها مجموعةً كبيرةً من قضاياها وشؤونها وشجونها. حسبيَ أن أذكر منها هنا ندوةَ «اللغة العربيّة وتعلّمها: الإشكاليّات وآفاق الحلول»، والطاولةَ المستديرة حول «التجارب الجامعيّة في قياس كفاءة الطلّاب في اللغة العربيّة»، ومؤتمرَ «لغة الشباب، وشباب اللغة». وقد اعتمدت في طرح إشكاليّاتها منهجيّةً تجمع بين العرض والنقد

والتقيم، وتركّز على صياغة الاقتراحات ورفع التوصيات ورسم الرؤى والتطلّعات الهادفة إلى تجاوز الواقع المرير، وتحقيق النهضة المرجوّة. ولم تكن في ما أنجزته على هذا الصعيد إلّا ملتزمةً بتوجّهات منظّمة اليونسكو، ووفيّةً لتقاليد لبنان العريقة، وللدور الطليعيّ والرائد الذي أدّاه مفكّروه وأدباؤه وأديرتُه ورهبانُه في الحفاظ على اللغة العربيّة، وتحديثِ أساليب التعبير بها، وضخِّ نُسْغ الحياة في عروقها المتصلّبة وشرايينها المسدودة.

سعادةَ المستشار،

نحن نتابع عن كَثَب ما تبذله المملكة من جهود مكثّفة ودؤوبة، من خلال وزاراتها المعنيّة، وجامعاتها، وأنديتها، من أجل تعزيز اللغة العربيّة، وتطوير برامجها التعليميّة، وتأهيل معلّميها، وتحفيز التلامذة والطلّاب على اكتساب مهاراتها. ومَن منّا لا يقدّر ما يقوم به مركزُ الملك عبدالله بن عبد العزيز الدوليّ لخدمة اللغة العربيّة، ودعوتَه الملحاح إلى تأطير تعليمها، وتوحيد الجهود البحثيّة والتعليميّة الرامية إلى الارتقاء بها، واهتمامَه البالغ بتعليمها لغير الناطقين بها، وسعيَه إلى فتح آفاق جديدة ومبتكرة في نشرها وتفعيل حضورها العالميّ.

أيّها الحفلُ الكريم،

لن أتطرّقَ إلى محاور النَدوة الفكريّة التي ستديرها بعد قليل، بكفاءتها المعهودة، زميلتي سعادةُ الأمينة العامّة للجنة الوطنيّة اللبنانية لليونسكو، والتي يشارك فيها نخبةٌ من أساتذة جامعات لبنان المشهودِ لهم بالمعرفة والخبرة. اسمحوا لي فقط أن أشير إلى أنّ النهوضَ باللغة العربيّة الذي اختاره منظّمو هذا الملتقى عنواناً للنَدوة، هو مهمّتُنا جميعاً، إن كنّا حقّاً نحبّ لغتنا، ونحرَص عليها. صحيح أنّ المسؤوليّةَ تقع بالدرجة الأولى على عاتق وزارات التربية والتعليم، والمنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو)، ولكن يَنبغي أن يضطلع بأعبائها ومقتضياتها وتبعاتها المدارسُ، والمعلّمون، والأساتذة، وأولياء التلامذة، ومؤلّفو الكتب، والجامعات، ومراكزُ الدراسات والأبحاث، واللجانُ الوطنيّة العربيّة لليونسكو، ووسائلُ الإعلام، وهيئاتُ المجتمع المدني ومؤسّساته.

وعندما نستعرض ما تُطلقه الملحقيّاتُ الثقافيةُ الأجنبيّة في لبنان، وفي طليعتها المركزُ الثقافيُّ الفرنسيّ، ومعهد Cervantes الاسبانيّ، ومعهد Goete الألماني، والمركزُ الثقافيّ البريطانيّ، من برامج، وما تقوم به من أنشطة، من أجل تعزيز انتشار لغات بلدانها، نتطلّع بالكثير من الأمل ومن الثقة إلى الدور الكبير الذي تستطيعُ البعثاتُ الدبلوماسيّةُ العربيّة أن تقومَ به في مجال المشاركة في مسيرة النهوض باللغة العربيّة. وغنيٌّ عن البيان أنّ الدورَ المنوطَ بها يختلف عن دور البعثات الأجنبيّة لأنّها عربيّة وعاملةٌ في بلد عربيّ، ولكنّه لا يقلُّ عن دور نظيراتها أهميّةً. فنرجو من سعادة المستشار، أن يُطلق مبادرةً تضامنيّةً بين الدبلوماسيّة والفكر والتربية، وينظّم بالتشاور والتنسيق مع زملائه الكرام، سفراء الدول العربيّة، حملةً بعنوان «معاً...لننهض بلغتنا»، وأن يضع معهم خطّةَ عمل مشترك. ونحن في اللجنة الوطنيّة اللبنانيّة لليونسكو على أتمّ الاستعداد للتعاون في تنفيذها، من أجل نهوضٍ حقيقيّ بلغتنا.

فدعونا نختتم مناسبةَ احتفالنا باليوم العالميّ للغة العربيّة، لنذكّر بأنّ خيرَ ما نكرّم به لغةَ الضاد، هو ألّا يقتصرَ اهتمامُنا بها على يومها هذا، بل أن يكون منطلقاً لعمل يوميّ متواصل ومتجدّد ومستدام. فنحن جميعاً، حكّاماً ومواطنين، مجموعات وفُرادى، معنيّون بواقع اللغة العربيّة، مسؤولون عن نهضتها، ومؤتَمنون على مستقبلها. فأرجو أن نكون على مستوى المسؤوليّة، وأوفياءَ للأمانة.

أجدّد الشكر لمعالي وزير الثقافة الذي فاجأنا وشرّفنا وأسعدنا بحضوره،

شكراً لمَن سيثرون هذه النَدوةَ بخبراتهم وآرائهم واقتراحاتهم،

والشكرُ موصولٌ لسفارة المملكة العربيّة السعوديّة، شريكتنا في الدعوة إلى هذه الندوة، على دعمها واستضافتها،

عِشتم، عاشتِ الصداقةُ اللبنانيّة – السعوديّة، عاشتِ اللغةُ العربيّة

وعليكم، أيّها الكرام، ألفُ سلام!!!

الشيخ الدكتور محمد النقري *

مخاطر اضمحلال اللغة العربية في زمن العولمة وبعض الحلول المطروحة

من خلال الأبحاث التي أجراها علماء الاجناس خلال القرنين الماضيين عن تطور المجتمعات البدائية من العائلة ثم العشيرة ثم اتحاد العشائر، أجمعوا على أن تعددية هذه المجتمعات من خلال تطورها نحو الإتحاد اعتمدت على منهجية ضم الشعوب المغلوبة دون المس بعقائدها الدينية ففي كل مرة كانت تتوسع فيها هذه المجتمعات كانت تضم آلهة الشعوب المغلوبة إلى آلهة الشعوب الغالبة وتوضع جميعها داخل بناء تجمّع الآلهة والعظماء Panthéon. الذي يهمنا من هذا الموضوع أن هذا الإنصهار الوطني والديني تزامن مع اندماج لغات ولهجات الشعوب المغلوبة وعاداتهم وتقاليدهم مع الشعوب الغالبة فأثرت اللغة الغالبة باللغات الأخرى ولكنها تأثرت أيضًا في بعض منها.

الإنتكاسة الأولى التي تلقتها هذه التعددية الثقافية كان من قبل الديانة اليهودية التي منعت أي اتصال واحتكاك بين الشعب اليهودي مع كافة الشعوب المجاورة، فيهوا الإله الحصري لليهود لم يكن ليقبل بوجود إله آخر غيره، ونصوص العهد القديم مليئة بآيات تحظر على اليهود اتباع عادات وتقاليد الوثنيين. وتبع ذلك الإنحسار تقوقع اللغة والعادات والتقاليد للشعب اليهودي ولم تندمج مفرداتها ولا عاداتها مع باقي الشعوب الوثنية.

* قاضي ومدرس في جامعة القديس يوسف - بيروت

عندما جاء الإسلام كانت مكة مقصدًا لحجاج العرب الوثنيين وكانت لهجتها العربية رائجة ومهيمنة على باقي لهجات القبائل باعتبار كون مكة مقصدا للحجاج في الجاهلية، وجاء القرآن الكريم - وفق قول السيوطي - وضم بعض المفردات غير العربية إلى نصوصه، مثل كلمات : «استبرق، سندس سجّين، مرقوم، أرائك، تسنيم» دون أن ينال ذلك من عظمة القرآن الكريم الذي أنزل «بلسان عربي مبين».

عندما توسعت الدولة الإسلامية ودخلت شعوب المناطق المجاورة إلى الإسلام لم يتمّ حظر اللهجات واللغات التي كانت تنطق بها هذه الشعوب ولم تستبعد عاداتهم وتقاليدهم بل على العكس تمامًا أصبحت هذه العادات فيما لو كانت حسنة مصدرًا من مصادر التشريع الإسلامي، حتى على الصعيد اللغوي انتشرت كثير من المفردات السريانية وغيرها إلى اللغة العربية وباتت جزءًا من التراث المنطوق والمكتوب لسكان المنطقة.

فهم المسلمون الأوائل بأن تنوع الألسنة هو مقصود إلهي بذاته فلم يفرضوا اللغة العربية كرها على تلك الشعوب كما فعلت الدول الأوروبية مع اللغات المحلية لبعض السكان، بل تركوا المجال للتفاعل الحضاري أن يدلو بدلوه فدخلت الشعوب التي أسلمت حديثاً ضمن إطار التعريب الهادىء وترجمت العلوم من الإغريقية إلى العربية وظهرت في كل العلوم مصطلحات جديدة أبهرت العالم بتنوعها فأدخلت إلى قاموس اللغات الأوروبية والهندو أوروبية وما زالت إلى الآن مستخدمة كمصطلحات تعود بجذورها إلى اللغة العربية.

في كتابها الشهير شمس العرب تشرق على الغرب، كتبت المؤلفة زيغريد هونكه في فصله الأول مخاطبة صديقتها الأوروبية : «هل لي ياسيدتي الفاضلة، أن أدعوك إلى دخول هذا المقهى (Cafe) فإنك تبدين متعبة. وهل لك أن تنزعي عنك شقتك (جاكتتك Jacke) وأن تأخذي مكاناً لك على (الصفة sofa) ذات المرتبة الحمراء القرمزية (Karmin...Matraze) إن القندي صانع الحلوى (Konditor) ذو القلنسوة (Mutze) الفارعة والقباء (Kittel) الأبيض الناصع، سيحضر لك حالاً طاسة (Tasse) من قهوة البن (Bohnen Kaffee) مع قطعتين من السكر (Zucker) أم إنك تفضلين غرافة (Karaffe) من عصير الليمون (ليموناضة (Limonade) إذا كنت لا ترغبين في تناول الكحول فإنك بلاريب ترغبين بقطعة من الحلوى مع شيء من البرقوق المشمش (Aprikosen) ومن بنان الموز (Banaen).

هذه المفردات الكثيرة جدًا التي دخلت قواميس اللغات الأوروبية المتنوعة مصدرها اللغة العربية، وقد دخلت اليهم عن طريق التبادل التجاري وكنتيجة طبيعية للتفوق العلمي الإسلامي والعربي ولما صاحبه من حركة الترجمة، دون أن ننسى احتكاك اللغات الأوروبية باللغة العربية الأندلسية. هذه الهيمنة الحضارية والتي تبعتها الهيمنة اللغوية للغة العربية خلال قرون عديدة لم تكن لتمر إلا على حساب اللغة اللاتينية لغة الثقافة والعلم في حينها، فكثرت شكوى رجال الدين المسيحيين من استخدام الشباب في ذلك الوقت للغة العربية للدلالة على ثقافتهم بل كان هؤلاء الشباب يستغرقون في تقليد العرب في لباسهم ومأكلهم وفنونهم، فكتب أحد رجال الدين المسيحيين في ذلك الوقت :

«وا أسفاه، إن الجيل الناشئ من المسيحيين لا يحسنون أدباً أو لغة غير الأدب العربي، واللغة العربية، وإنهم ليلتهمون كتب العرب، ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان. وفي نفس هذا السياق كتب ألفاروا مطران قرطبة في عام ثمانمائة وأربع وخمسين للميلاد إلى أحد أصدقائه رسالة يقول فيها: «إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبًا عربيًا جميلًا صحيحًا. وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات التلاميذ، وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة !! إن الموهوبين من شبان المسيحيين لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقية جديرة بالإعجاب. فإذا حدثتهم عن الكتب المسيحية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم !! لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم فلا تكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك لتجد منهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً.

يضاف إلى الهيمنة الحضارية العربية وتفوق اللغة العربية على باقي اللغات المحكية، أن الدولة كانت تشترط على من يريد تسلق المناصب الإدارية التحدث باللغة العربية فأدرك يهود الأندلس بأنه لاسبيل امامهم اذا ما أرادوا الوصول الى هذه المناصب إلا بتعلم اللغة

العربية، وعلى أساس ذلك فقد دأب اليهود بإتقانها بسرعة فاقت كل التصورات، إلى درجة أنها أصبحت لغة الكتابة والمراسلات لديهم فألفت كتب كثيرة بما فيها الكتب الدينية، وقد انعكست هذه الحركة الثقافية على سائر اليهود في بلاد الأندلس فأقبلوا على تعلم اللغة العربية مما فتح المجال امام اليهود في تبوأ المناصب الإدارية سواء داخل الأندلس او خارجها على سبيل العمل الدبلوماسي، ولا يفوتنا في هذا المجال أيضًا الإشارة إلى ان أتقان اليهود للغة العربية واللغات الأخرى قد منحهم أولوية العمل في قصور الخلفاء والامراء، فكانوا يشاركون في مراسيم استقبال سفراء الدول الاوربية الوافدين إلى بلاط الدولة العربية الإسلامية. مع الإشارة بأن المسيحيين قد شاركوا اليهود في نهضة اللغة العربية واستخدام مفرداتها بل وإتقانها على حساب لغاتهم الأم كما سبق وذكرنا.

هذه المقدمة الطويلة عن تبوء اللغة العربية لمركز الصدارة بين لغات العالم خلال قرون عديدة تصلنا بواقعنا الحالي في بداية الألفية الثالثة التي باشرت بإزالة الحدود بين الثقافات وقفزت بنا إلى عالم افتراضي للالتحاق بالقرية الكونية. إزاء هذا التغيير الجذري والمربك تعاني اللغة العربية من كل أعراض الضعف والتهميش على حساب اللغات الأخرى، والناتجة عن عدم مواكبة اللغة العربية للتقدم العلمي الهائل الذي تمتلكه الدول الغربية. لإن صمدت لغتنا العربية أمام محاولات التتريك ثم أمام المستعمر الفرنسي والإنجليزي والإيطالي الذين فرضوا لغتهم على مراسلات الدولة والتعاليم الصادرة في الإدارات العامة والخاصة، بل وعلى صعيد المدارس والإرساليات فهل ستصمد لغتنا أمام تحديات العولمة. إن الصرخة التي أطلقها رجل الدين المسيحي مطران قرطبة في عهد الدولة الأندلسية هي نفس الصرخة التي يطلقها الآن المشايخ والعلماء والأساتذة من على منابر الجوامع والجامعات، مع فريق بسيط يكمن في استبدال كلمة هيمنة اللغة العربية بكلمة هيمنة اللغات الأجنبية.

ليست مشكلة إتقان اللغات الأجنبية هي التي يشار اليها بتهمة إضعاف اللغة العربية، ولكن عدم ميل الشباب إلى استخدام اللغة العربية كلغة محكية ولغة ثقافة وكتابة وتعليم واستبدالها باللغة الإنجليزية أو الفرنسية. والأشد خطورة هو ميل الأهل بالتحدث مع أطفالهم حصريًا بإحدى اللغات الأجنبية دون اللغة العربية. هذا على الصعيد الفردي أما على صعيد التبادل التجاري والمصرفي والمراسلات الإدارية حتى الفواتير والإعلانات والدعايات داخل الوطن العربي فتتم معظمها باللغة الأجنبية. إلى جانب هشاشة البرامج التلفزيونية

والسينمائية ومختلف الفنون وضعف البرامج الدراسية والجامعية المخصصة للغة العربية.

هذه التحديات يضاف اليها استخدامات الإنترنت وصفحات التواصل الإجتماعي والمراسلات بين الشباب بحيث باتت كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية هي المعتمدة، وسط اعتراض الآباء والخبراء التربويين، الذين يؤكدون خوفهم من اندثار اللغة العربية. في المقابل يرى بعض الإختصاصيين أن استعمال الشباب لغة خاصة بهم ليس تمرداً على المجتمع أو أحد أنواع الهروب منه، وإنما هو تطور طبيعي للغة الشباب، ويمثل صراعاً دائماً على مر الأجيال بين الشباب والآباء والأجداد، إذ يرون دائماً أن تطور المفردات يهدد اللغة العربية، لكن المشكلة تكمن في صراع الأجيال. ومهما يكن فإن هذه الإستخدامات التي يلتجأ اليها الشباب للتعبير بسهولة وبسرعة عن افكارهم، تهدد مصير اللغة العربية في الحياة اليومية، وتلقي بظلال سلبية على ثقافة الشباب العربي وسلوكه بشكل عام وهذا ما أكدته الدراسة التي أعدها المركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية في القاهرة. ورغم ذلك فإننا لا نقصي مسؤولية خبراء اللغة العربية من استحداث مفردات سهلة لمواكبة التطوّر الهائل في التكنولوجيا مما يدفع الشباب للجوء إلى ابتكار ألفاظ ومصطلحات جديدة قد لا تلقى مرادفاً لها في اللغة العربيّة. هذا إذا ما أخذنا بعين الإعتبار تمدد شبكات التواصل الإجتماعي عبر الإنترنت لتطال مختلف الشرائح العمرية من شتى الخلفيّات السياسية والدينية والثقافية.

ولا تقتصر حالة الفوضى اللغوية هذه على اللغة العربيّة فحسب، بل تطال حتى اللغات الأجنبيّة الأخرى. فاللغة الفرنسية مثلًا لم تستهو إلا نسبة 4 % من المستخدمين بعد اللغة الروسية والصينية واليابانية والإسبانية، في حين أن اللغة الإنجليزية تستولي على 56 % من مستخدمي الإنترنت في العالم. وهذا يعود إلى أن اللغة الإنجليزية تزيد من مفرداتها من أجل مواكبة التقدم التكنولوجي بنسبة 5% سنوياً لتصبح حالياً عدد مفرداتها ما يتجاوز المليون كلمة في حين أن اللغة الفرنسية لا تتجاوز كلماتها المائة الف كلمة. ومع اختلاف الآراء في عدد مفردات اللغة العربية فإنها قد تتجاوز المليون كلمة غير أن المستخدم منها لا يتجاوز 30% من المفردات هذا إذا أخذنا بالإعتبار الجفاف التام لمفردات اللغة العربية المستحدثة وخاصة حين يتعلق الأمر بمواكبة التقدم التكنولوجي والعلمي.

بعض الحلول لاستعادة اللغة العربية لدورها الرائد سواء على صعيد الوطن العربي أو على صعيد العالم:

- بما أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدول العربية فيجب أن تكون لغة الوزارات والإدرات العامة والمراسلات حصريًا في اللغة العربية. وهذا من موضوعات السيادة التي يتعين على كل دولة احترامها والتقيد بها.

- الزام المؤسسات التجارية والإقتصادية والإعلامية والإعلانية أن تتقيد باستخدام اللغة العربية في معاملاتها الداخلية. وهذا الأمر لا تتقيد به معظم هذه المؤسسات التي تتعامل باللغة الإنجليزية او الفرنسية مع عملائها وزبائنها. (عندما كنت مديرًا عامًا لدار الفتوى أشرفت على تنظيم مؤتمر وزراء الأوقاف الذي عقد في حينها في بيروت، وعند استلامي لفواتير الفنادق التي استضفنا فيها أعضاء الوفود أعدتها اليهم وطلبت منهم كتابتها باللغة العربية، وبعد أخذ ورد أضافوا إلى برنامجهم المعلوماتي برنامج اللغة العربية ثم أرسلوا لي الفواتير باللغة العربية.)

- ضمّ الشباب إلى المجامع اللغوية وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمفردات التكنولوجية والعلمية وتلك المستخدمة في برامج المعلوماتية.

- إلزام الموظفين والعاملين الأجانب في كافة الدول العربية من أعلى الهرم الوظيفي إلى فئة المستخدمين اتقان اللغة العربية.

- تعديل البرامج الدراسية والجامعية بما يتوافق مع مستلزمات دعم وتطوير اللغة العربية.

الدكتور لطيف زيتوني *

كيف ستكون العربية لغتنا الأم؟

لا أعرف لماذا تردّد في خاطري، وأنا أدوّن ملاحظاتي التمهيدية لكتابة هذه المداخلة، المثل العربي المعروف: «ومنَ الحبّ ما قتل».

نعم، إنّ بين محبّي العربية ثلاثة يحفرون قبرها في كلّ يوم: جاهلٌ ومهملٌ ويائس.

من الجهلة فئة تردّد أنّ العربية اتسعت في الماضي لكلّ العلوم، وبإمكانها أن تستوعب اليوم كلّ العلوم. وكأن العربية ليست نظامًا من العلامات اللسانية يتسع إذا وسّع مستخدموها آفاق فكرهم وآدابهم وطوّروا علومهم وفنونهم وطوّعوا لغتهم لحاجاتهم، ويضيق إنْ أضاع أهلُها بوصلة الزمن فتوقفوا حيث هم لا يملكون غيرَ قديمهم.

ومن الجهلة فئة تردّد أنّ العربية لغة القرآن، فتعمى عن أنّ تقديس اللغة بربطها بالوحي القرآني يجمّدها على حالتها، ويمنع تطويرها، ويحوّلها إلى تمثال جميل.

ومن الجهلة فئة لا تعرف سوى لغتها، ولا تدرك معنى الثراء المعجمي في اللسانيات التعاقبية، فلا تتوقف عن المفاخرة بأن العربية أوسع اللغات لأنها تحتوي مئات الألفاظ الخاصة بالبعير ومثلها للأسد الخ.. من دون أن تطرح على نفسها السؤال عن مدى حاجتها

* أستاذ السرديات في الجامعة اللبنانية الأميركية

اليوم إلى كل هذه الكلمات بعدما تخلى العرب عمومًا عن الابل وكاد الأسد ينقرض من بلادهم. كما لم تسأل نفسها عن عدد الألفاظ العربية في مجال الحاسوب والكتابة الرقمية والفيزياء والفلسفة ونقد ما بعد الحداثة، بل في مجال برع العرب فيه في الماضي وانتجوا دراسات عميقة ومبدعة، أقصد مجال اللغة.

ومن الجهلة أساتذة يدرّسون طلابهم ما هم تعلموه، فاللغة عندهم إرث يورّث لا ثروة تستثمر، وقواعدها عندهم شعرٌ يحفظه الصبية عن ظهر قلب من «الفية ابن مالك»، وبلاغتها لا تستقيم إلا نقلًا من «تلخيص» القزويني.

ومن المهمِلين حكّام لا يدركون أن اللغة مادة سياسية، ولا يفطنون إلى أثرها في اقتصادهم وثقافة شعبهم، ولا يرون الأخطار التي تتهدّدها ولا الفشل في تعليمها الذي يأكل من رصيدها عند أهلها، فيتركونها على قديمها علّ الناس يعتادون على حالتها كأنها شيء من طبيعتها.

ومن اليائسين أناسٌ حلموا بتطوير اللغة، فطرحوا الافكار، ودبّجوا الدراسات، وأجروا الأبحاث الميدانية، ونشروا النظريات، فانتهت دراساتهم إلى الخزائن المقفلة والرفوف الصفراء، فيئسوا من إمكانية الإصلاح، لا في اللغة بل في كل شيء في هذه البلاد.

فهل بقيتْ لنا بعد ذلك حاجةٌ إلى ندوة نقيمها أو مؤتمر نعقده فيما نحن واثقون من أن كلماتنا ستضيع في الهواء، وأوراقنا سيأكلها الغبار؟

❊❊❊

في العاشر من آذار عام 2003 نشرت منظمة اليونسكو تقريرًا هامًا بعنوان «حيوية اللغات وموتها»، أشارت فيه إلى أن عدد لغات العالم يتقلّص تدريجًا، وأن اللغات المحلية تتلاشى لصالح اللغات الأوسع انتشارًا وأن 97% من البشر يستخدمون اليوم 4% من اللغات فقط، وأن تقدير الخبراء هو أن تسعين بالمئة من اللغات ستزول قبل نهاية القرن ولن يبقى سوى اللغات العالمية القليلة الحية.

ما يمكننا استنتاجه من هذا الإحصاء هو أن الانفتاح المتزايد بين الشعوب واتساع

مساحة التبادل التجاري والسياسي والحضاري والثقافي سيقود العالم عمليًا إلى البحث عن لغة مشتركة أو إلى الاكتفاء بعدد قليل من اللغات هي بالتأكيد لغات الشعوب الأوسع ثقافة والأقوى اقتصادًا في العالم.

في ظلّ هذا الاتجاه وهذه التوقعات ماذا ينبغي علينا أن نفعل، أننتظر حلول المقدّر ونملأ الوقت الضائع بالمواقف الصوتية التي وقفناها إزاء قضايانا جميعا أم ننهض إلى العمل ونسعى إلى تشخيص الواقع ووضع الخطط التي تحمي العربية من خطر الزوال؟

* * *

لعل أوّل ما ينبغي أن ينتبه اليه الناهضون الى العمل هو أن الأخطار التي تهدّد اللغة لا تأتي من الخارج. فهي داخلية أكثر منها خارجية. فالأمّية هي أبرز الأخطار، ومثلها التخلّف، وقعود الحكومات العربية عن تطوير مناهج التعليم وفق روح العصر، وينسحب التخلف على موقف النخبة التي صارت تجد في استخدام اللغة الاجنبية علامة على انتسابها إلى الطبقة الراقية.

أما الأخطار الخارجية فتأتي من حاجتنا إلى تعلم اللغات الأجنبية والتكلم بها لا للتبادل التجاري، والسفر، بل للتخصص، والعمل، وحتى لاستخدام أبسط الأدوات الحديثة، لأن العربي هو في كل شيء تقريبًا مستهلك لا منتج. هذا فضلًا عن التأثير المعنوي للغات الحيّة الكبرى الذي يجذب الناس إلى تعلّمها كتذكرة دخول إلى العالم الواسع.

هل اللغة العربية مهدّدة بالموت؟

لنراجعْ تقريرًا آخر لمنظمة اليونسكو التي استعانت عامي 2002 و2003 بفريق من المتخصصين في اللسانيات لوضع معايير تسمح بتقييم حيوية أيّ لغة بغية رسم سياسة تنموية تستجيب لحاجاتها. وقد وضعت هذه المجموعة تسعة معايير للتقييم تؤخذ كمجموعة:

- انتقال هذه اللغة من جيل إلى جيل،
- العدد الإجمالي للناطقين بها،
- نسبة الناطقين بها إلى مجموع سكان البلاد،
- توفر المواد اللازمة لتدريسها ولمحو الأمية،
- استجابة هذه اللغة للمجالات المستحدثة ووسائل التواصل الجديدة،
- طراز ونوعية التوثيق فيها،
- مواقف الحكومات والمؤسسات وسياساتها اللغوية، بما في ذلك المقرّر رسميًا والمطبّق فعليًا،
- مدى التراجع عن استخدام هذه اللغة لدى أبنائها،
- مواقف أفراد الشعب من لغتهم.

ولكن الباحثين عن أجوبة عن هذه الأسئلة سيرتكبون خطأ فادحًا إن هم لم ينتبهوا إلى أن اللغة التي يتحدث عنها الفريق الأممي هي تلك التي يتكلم بها الناس. فهل اللغة العربية هي اللغة التي يتكلمها العرب في البيت والشارع وفي اللقاءات الإجتماعية والمؤتمرات ووسائل التواصل الإجتماعي والتدريس ويدونون بها أدبهم وأبحاثهم والأوراق الرسمية؟ ليس الجواب واحدًا عن كل من هذه المعايير. فالمثقف العربي يستخدم، في رأيي، أربع لغات:

- اللغة الأجنبية في المؤتمرات التي تعقد خارج البلاد العربية،
- اللغة العربية الكتابية في الكتابة وقراءة الأوراق البحثية والتعليم الجامعي والتأليف عمومًا،
- اللغة العربية التداولية في اللقاءات بين مثقفين ينتمون إلى بلدان عربية مختلفة، وفي الكتابة المسرحية،
- اللغة العامية في كل ما تبقى من أيامه، في ساعات قيامه وفي ساعات نومه، فهو بها يتخيّل ويتذكّر وبها يحلم.

هذه هي حال المثقف، فما حال الأمّي الذي لا يعرف الفصحى ولا ينطق بها، لا يقرأ بها ولا يكتب، لا يرثها ولا يورّثها، ولا تنتقل عبره من جيل إلى جيل. وإذا عرفنا أن التقرير الإقليمي الذي أعدته منظمة اليونسكو عن التعليم في الدول العربية قد بيّن أن نسبة الأمية بين العرب ناهزت الستين بالمئة، أصبح كل كلام عن أن الفصحى هي لغة العرب الأم كلام لا يقوم على أساس.

ما هي اللغة الأم في هذه الحال؟

ليس لهذا المصطلح تعريف في معاجمنا العربية القديمة، ولا الحديثة كالمعجم الوسيط ومحيط المحيط. أما دائرة المعارف البريطانية فتذكر في مادة «لغة»: إن الناس إجمالًا يكتسبون في البداية لغة واحدة هي لغتهم الأولى، اللغة التي يستخدمها أهلهم أو من رباهم من الولادة. ويتعلمون لاحقًا، في ظلّ ظروف مختلفة، لغات «ثانية» يصلون فيها إلى مستويات مختلفة من الكفاية.

بهذا التحديد تكون لغتنا الأم هي العامية لا الفصحى، وتكون العربية الفصحى «لغة ثانية» عند أطفالنا، لأنهم يتعلمونها في المدرسة كما يتعلمون اللغات الثانية، ولا يتلقونها من أفواه أمهاتهم ولا يستخدمها أهلهم. وربما يمكننا مقارنتها – جزئيًا – باللغة اللاتينية التي بقيت بضعة قرون لغة فصحى يتعلمها الناس ولا يتكلمونها. كانت لغة الثقافة والدين، واليها ترجم المترجمون في اسبانيا علوم العربية وفلسفتها، وبقيت تدرّس عمليًا إلى القرن التاسع عشر اذ كان العائلات العريقة النسب في فرنسا تعلمها لأولادها فيما أولاد العائلات الأخرى يكتفون بالكتابة والقراءة والحساب بالفرنسية. ولكن الزمن لم يحم اللاتينية من الموت ومن قيام اللغات المحكية مكانها. وما الأصوات الداعية إلى العامية اليوم والتي نسمعها هنا وهناك في البلاد العربية خصوصًا في بلاد المغرب سوى انذار لذوي الفطنة ومتولي المسؤولية.

ما الذي علينا فعله إذن لنجعل اللغة الفصحى لغتنا الأولى، أي لغتنا الأم؟

لقد بيّنت الدراسات النفسية اللسانية أن بإمكان الطفل أن يتعلم أكثر من لغة واحدة، أي أن تكون له أكثر من لغة أم. فالطفل يفهم لغة أمه ولغة أبيه إن كانتا مختلفتين، ويتكلم بهما معًا منذ سن الثالثة، أي قبل دخوله المدرسة. ويمكننا البناء على ذلك إن أردنا أن نجعل العربية فعلا اللغة الأم لأطفالنا.

وإذا كانت الفصحى لغة ثانية لدى الأطفال العرب، فإن وضعها مختلف عن وضع اللغات الثانية الأجنبية. فهي أقرب منها كلها إلى عامياتنا، سواء بمفرداتها أو بتراكيبها، وهي الحاضرة الكبرى في مواد الدراسة غير اللغوية التي سيتابعها الأطفال في الصفوف المدرسية، وهي المستخدمة في وسائل الإعلام الرسمية التي سيسمعها الطفل حين يكبر، وهي، وهذا هو الأهم، اللغة الرسمية للبلاد.

إن أول ما ينبغي فعله هو التخطيط للبناء، ولا بد من أن نسأل أنفسنا: ما الذي يجعل اللغات الأجنبية أقرب إلى ذائقة التلامذة الصغار من اللغة الفصحى؟ ومن الجواب عن هذا السؤال سنتبين جوانب القصور والنقص في لغتنا التي تمنعها من أن تكون محبّبة لصغارنا. لقد سبقتنا الدول الأجنبية كثيرًا إلى تحديث طرق تعليم لغاتها ووضع القواعد للتأليف المدرسي ولكتابة قصص الأطفال والأولاد. وما كان بوسعها أن تنجح لو لم تبدأ أولاً باستخراج أساسيات لغاتها. إن العمل على استخراج ما يسمى «العربية الأساسية» هو المدخل الصحيح لكل اصلاح في تعليم اللغة العربية. وهو ما اختبرته الأمم المتطورة، وبنت على نتائجه سلمًا تربويًا علميًا لتعليم اللغة يحدّد سلفًا القواعد التي يحتاجها التلميذ في كل مستوى والألفاظ التي ينبغي أن يتعلمها والتراكيب النحوية التي بإمكانه أن يستخرجها ويكتب على هَدْيها. هذا التدرّج المدروس في تعليم اللغة وفق المستويات والأعمار والحاجات هو ما تفتقده العربية. ولقد فشلت المحاولات الفردية الكثيرة في تحقيق تغيير يذكر، رغم خبرة أصحابها، لأن هذا العمل التأسيسي هو عمل دولة لا أفراد. فاللغة مسؤولية جماعية، أي مسؤولية الدولة التي تستطيع أن تجمع الخبراء وتموّل الأبحاث وتؤمّن المدارس لإجراء الاختبارات وتبني البرامج على هَدْي النتائج، وتُلزم بها الجميع.

لقد اعتقد الناس طويلًا أن الطفل يتعلم لغته الأم فقط بتقليد الكلام الذي يسمعه من والديه. ولكن هذا الاعتقاد ما لبث ان ظهر بطلانه نتيجة دراسات لسانية عدة (من بينها دراسات نعوم تشومسكي) بيّنت أن قابلية تعلم اللغة مسألة فطرية يتميز بها الإنسان دون سواه. وقد حدّد العلماء خمسَ مراحل يتدرّج فيها الطفل من الثغثغة إلى تأليف جملة مكتملة.

وتكتمل هذه المراحل كلّها في سنّ الخامسة. وفي هذه السن المبكّرة لا تتكوّن لغة الطفل وحسب بل تتكوّن معها أفكاره أيضًا. فتطوّر الفكر لا ينفصل عن تطوّر اللغة. فسواء كانت اللغة تتأسس على الأفكار كما يقول بياجيه أو كانت الأفكار هي التي تتأسس على اللغة كما يقول فيغوتسكي Vygotsky، فإن النتيجة واحدة وهي أن الفكر واللغة متلازمان. وقد بينت «دروس» سوسور أن لا دالّ من دون مدلول ولا مدلول من دون دالّ.

ولكنّ هناك مسألة لا بدّ من حسمها أيضًا حين نتصدى لتعليم الفصحى للصغار، وهي: أي لغة عربية نريد تعليمها لصغارنا: الكتابية أم التداولية؟

ليس بوسع العربية الكتابية، في رأيي، أن تكون لغة أولى لأطفالنا لأسباب كثيرة ليس هنا مجال مناقشتها. العربية التي ينبغي أن نعمل لترسيخها على لسان أطفالنا هي العربية التداولية، وهي لغة عربية فصحى مبسّطة خالية من الحركات الإعرابية، شبيهة بتلك التي أسماها عصام محفوظ «الفصحى الشعبية» وفصّل مشروعها بهدف خلق لغة عربية مسرحية مشتركة. ومحفوظ هو خاتمة سلسلة من الكتّاب الذين حاولوا، كلّ بمفرده وعلى طريقته، بناء جسر فوق هذه الهوة الفاصلة بين العامية والفصحى.

ولكي تكون العربية التداولية لغة أولى لصغارنا ينبغي أن يتلقاها الطفل من فم أمه وأبيه، أو من يتولى تربيته. إن الطفل كائن ناطق من قبل ان يبدأ بالكلام، وكائن مفكّر من قبل أن يعبّر عن الأفكار. فهو قادر على أن يكتشف بُنى الجُمل اللغوية العميقة وأن يبني عليها جملًا من تأليفه لم يسمعها قط، وأن يعتمد على هذه البُنى لاستنتاج معاني الكلمات التي تتكرّر على مسمعه في سياقات مختلفة. هذا الاستعداد الفطري وهذه القدرة على الاستنتاج تعطي الأم دورًا كبيرًا في اكتساب الطفل للغة. فالطفل يتوجّه إلى الأم ليسمع منها الألفاظ، ويتوجّه اليها ليعرف صحّة استعماله لهذه الألفاظ عندما يبدأ بتركيب الجمل البسيطة. وبقدْر ما تعطي الأم طفلها من الوقت والاهتمام تزداد ثروة الطفل اللفظية وبالتالي الفكرية والثقافية.

إن دور الدولة لا يكتمل ما لم يقترن بدور الأهل. وهذا الدور يكون فعالًا بقدر ما يكون واعيًا ومنظمًا. ولعل أبسط بداية لتنفيذه هي أن تخصّص الأم جزءًا من الوقت لتقرأ قصة لطفلها، قصة تناسب عمره وفهمه وتثير اهتمامه وتعلمه في الوقت نفسه ألفاظًا عربية ومعاني

جديدة، ويمكن للأب أن يستعين بكتب مصوّرة للأطفال ويقرأها مع طفلته وهو يشير إلى الصور لكي يساعدها على ربط اللفظة بالمعنى وبالمرجع الحسي الذي هو الصورة. وهكذا يتدرج الأهل مع الطفل إلى اليوم الذي يتمكن فيه الطفل من القراءة، فيقرأ هو قصة لأهله. وهكذا ينتقل الطفل من السماع إلى القراءة التي تنمي شخصيته وتزيد ثقته بنفسه لأنها تضعه موضع الفاعل لا المنفعل، وينتقل الأهل إلى مهمة جديدة هي التشجيع بحسن الاستماع وتفسير معنى الجملة عند الحاجة. هذه العلاقة المتبادلة بين الطفل ووالديه، عدا عن نتائجها السيكولوجية الإيجابية، تمكّن الطفل بعد حين من أن يقرأ الفصحى ويتكلم بها، ثم تعوّده على قراءة الكتب العربية التي تنمّي مخزونه اللغوي، ثم هي تنمي ذهنه فيصبح أكثر استيعابًا لدروسه المدرسية الأخرى، فضلًا عن اتزان شخصيته وميله إلى التعاون والسلام مع أقرانه.

هذه الصورة الإيجابية التي رسمناها ينقضها، للأسف، واقعٌ غير مساعد. فالأم التي عليها أن تقرأ لطفلها وتسمعه وتحادثه وتخصّص له ما يحتاجه من وقت واهتمام لا يوفّرها الواقع العربي المتخلّف. فقد بيّنت تقاريرُ منظمة اليونسكو أن أمية النساء في البلاد العربية ليست إلى انخفاض، فقد ارتفعت نسبتها من 66% عام 2011 الى 67% عام 2015. ويمكننا أن نتوقع أن يكون الوقت الذي تخصّصه الأم العربية لطفلها معدومًا بسبب كثرة الأولاد في الأسرة. كما أن حرص الأهل على تمكين الطفل من اللغة الفصحى منذ عمره الباكر هو موقف قومي يشير إلى وعي سياسي بالهوية والانتماء، وهذا ما نفتقده في بلادنا العربية حيث يغيب الانتماء القومي ويقوم مكانه الانتماء إلى الاثنية أو المذهب أو الدين. وهذه الانتماءات جميعًا تخرج الفرد من دائرته العربية إلى ما هو أكبر منها أو أصغر ومختلف عنها في الحالين. هذا فضلًا عن أن ما ينبغي أن تقرأه الأم أو الأب للطفل لا يتوفر بالشكل المدروس في بلادنا، فقصص الأطفال تؤلَّف من غير قاعدة تربوية لغياب هذه القاعدة كما ذكرنا، وليس لهذه الكتب هدف لغوي أو قومي أو ثقافي بل هدفها الربح المادي. كما أن المدارس الإبتدائية التي عليها أن تواكب الطفل وتتابع ما بدأه الأهل غير مجهزة بالوسائل المناسبة ولا بالمعلمين المدرّبين لمثل هذه المهمات الدقيقة.

يسهل على الراسخين في العلم أن يرسموا الخطط لجعل العربية الفصحى اللغة الأم لأبناء البلاد العربية، ولكنّ يستحيل عليهم أن يحدّدوا الزمن الذي سيشهد التنفيذ لأنه زمن الراسخين في السلطة.

لقد بدّد التخلف - والجهل والتعصب الديني والصراعات السياسية وتأبيد السلطة - أموالَ الأمة العربية وهجّر طاقاتها البشرية، ولم يبقَ اليوم من الأموال سوى القليل، ولم يبقَ من الطاقات الحقيقية سوى الأقل، فيما عدد الأفواه الجائعة يزداد على امتداد مساحة هذه الأمة.

فهل بإمكاننا بعدُ أن نحلم بمجتمع عربي يفتخر بلغته ويحرص على تطويرها ولا يتكلم إلا بها مثلما تفعل المجتمعات المتقدمة؟

إن علينا ذلك،

فماذا سنفعل لو توقفنا عن الحلم؟

بل ماذا سيفعل أولادنا؟

الدكتور مصطفى الحلوة *

جدل اللغة والتشكيل المعرفي
قراءة «نصوصية» تناظرية بين العربية الفصحى ولغات التواصل الإجتماعي

مدخل / العربية الفُصحى في مسيرة التحدي: استعراض تاريخي:

قيل للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان: «لقد أسرع إليك الشيب، قال: شيّبني صعود المنابر، والخوف من اللحن»[1]. ويُروى أن هذا الخليفة، الحريص على سلامة لغة الضاد، كان يضربُ بنيه على اللحن، وكان يأسف أسفاً شديداً، لظهور اللحن على لسان ابنه الوليد، وقد أُثر عنه قولُه: «أضرَّ بالوليد حبّنا له، فلم نرسلْهُ إلى البادية»[2].

عبر هذه المعطيات التي ترقى إلى حوالي ثلاثة عشر قرناً، نتوقف عند الهاجس الذي تملّك واحداً من حُرّاس العربية، ضُرب من بيتِ أبيه، - إذا جاز القول- وليستحيل هذا الهاجس، مع الأيام، هاجساً جمعياً!

* أستاذ السرديات في الجامعة اللبنانية الأميركية

1 راجع: اللغة العربية والوعي القومي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها «مركز دراسات الوحدة العربية»، بالاشتراك مع المجمع العلمي العراقي ومعهد البحوث والدراسات العربية- صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط1/ 1984. ص22

2 المرجع السابق، ص22.

ولقد جاءت الأيام لتُعزِّز من أحقية ذلك الهاجس، ولتغدُوَ العربية بإزاء تحديات، ترجحت فصولاً بين مدّ وجزر، وكان أشدها خطراً الفصل الذي شهدنا تجلياته، بدءاً من أواخر القرن التاسع شعر، حيث دار صراعٌ حامي الوطيس بين دُعاة العامية وبين المدافعين عن سيادة الفُصحى.

إشارةٌ إلى أننا نُعايش اليوم فصلاً، يفوق سابقه خطورةً، مُتجسداً في لغات التواصل الإجتماعي التي راحت، في جانب كبير منها، تُصادر مساحات واسعةً من لغتنا العربية، ولم يُعدْ الأمر مُقتصراً على الفصحى والعامية وما بينهما. بل بتنّا أمام عناوين مُتشعّبة تشعُّبَ وسائل التواصل ا لإجتماعي، المفتوحة على آفاقٍ لا حدود لها، وهي تأتينا كل يومٍ بجديد مُبهر!

في رصد مُقتصد لمشهديات الصراع حول العربية الفُصحى والعامية، إبّان القرنين الماضيين، يتحصّل أنّ أولى تباشير الدعوة إلى العامية والترويج لها، بدرت من المستشرق الألماني» ولهلم سبيتا» (1818–1883)، كان يعمل مديراً لدار الكتب المصرية، إذْ ألّف كتاباً بالألمانية، في العام 1880، عنوانه «قواعد العربية العامية في مصر»، تنبّأ فيه بموت الفُصحى وبقاء العامية.

بيد أن ما دفعه إلى تأليف هذا الكتاب، انشغال الناس بقصيدة عامية، وبشرح لها، تحت مُسمّى «هزّ القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف». ناهيك عن انشغال الناس في مصر بأزجال الشيخ حسن الآلاتي، وبجريدة «التنكيت والتبكيت» الصادرة بالعامية. وإلى ذلك، فقد راحت جريدة «المقتطف»، في الحِقبة عينها، تدعو بحرارة إلى كتابة العلوم بالعامية، لأنه لا مستقبل للفُصحى[3].

وفي هذا المجال، كان للمستشرق الألماني كارل فولّرس (1857 – 1909)، من محاضرة له في مؤتمر عُقد في الجزائر العام 1905، أن يذهب إلى مقولة، خُلاصتُها: «إن القرآن أول كتاب كتب بالعامية»، فتصدّى له الشيخ عبد العزيز جاويش، وكانت مساجلة بينهما!

3 راجع كتاب «أهمية تعلّم اللغة العربية»، مؤلّفه عبده محمد بدوي- سلسلة حوليات كلية الآداب- قسم اللغة العربية وآدابها- جامعة الكويت، الحولية السادسة عشرة/ الرسالة السابعة بعد المئة 1995- 1996، صادرة عن مجلس النشر العلمي- جامعة الكويت، ص14.

وبالمقابل، وفي إطار المواجهة، راحت الثورة العرابية تُشجع الفُصحى، عبر أشعار محمود سامي البارودي، وبإصدار جريدة «الطائف»، التي كانت تكتب بالفُصحى.

في مشهد مضاد، مع قدوم الإنكليز إلى مصر، فقد فرضوا الإنكليزية لغة تعليم، مُتبنّين ما سبق أن قرّره الألماني «ولهلم سبيتا»، مشفوعاً بما جاء به القاضي «دلمور» الذي وضع كتاباً العام 1902، عنوانه «لغة القاهرة»، استعرض فيه قواعد للعامية، ومقترحاً الكتابة بالحروف اللاتينية.

وقد وجد مواكبةً، في هذا المجال، من قِبل «السير وليم ولكوكس»، الذي ألقى محاضرة، في نادي الأزبكية العام 1893، دعا فيها إلى أن تحلّ العامية محل الفصحى.

ومما جاء في هذه المحاضرة «ان عدم وجود ظاهرة الابتكار عند المصريين، ترجع إلى أنهم يتعاملون بالفُصحى»، وفي ترجمةٍ لدعواه، عمد في العام 1926 إلى ترجمة جزء من الإنجيل بالعامية. وقد وجد من يُشجعه، في هذا السبيل، كسلامة موسى وسواه. كما كان دعمٌ لأطروحته الداعية إلى كتابة العربية بأحرف لاتينية، من لدن أحمد لطفي السيد. وكان لقاسم أمين أن يدخل على خط هذه المعمعة، فدعا إلى إلغاء الإعراب- والإعراب هو مطلبُ العقل في اللغة- وذلك لصعوبته.

أما أحمد أمين، فقد روّج لما يُسمي «لغة الوقف»، وإلى ما دعاه اتحاد العامية واتحاد الفُصحى، بحيث يتم التخلص من «خرفشة العامية»، و«غريب الفصحى»، وبما يُفضي إلى أن تنزل الفُصحى دركات، وأن ترتفع العامية درجات!

إن هذه الدعوات، على اختلاف مشاربها، وجدت صدى لدى بعض النقاد، فدعوا إلى كتابة الحوار، في القصص، بالعامية. ومن منطلق التوفيق بين الفصحى والعامية، برز تيار توفيقي، مآلُهُ الكتابة، بما يُسمّى «اللغة الثالثة»، أو ما دُعي بـ«الفصعمية» أو اللغة الخنثى! وقد كان من دُعاة هذه اللغة الكاتب عباس خضر، في مؤلف، عنوانه «الميزان»، مروّجاً للفصحى المخفّفة والعامية المشرقة، وهذا ما قرّره الكاتب فرح أنطون، في كتابه «مصر الجديدة ومصر القديمة»[4].

4 المرجع السابق، ص15-16.

بيد أن الساحة لم تُترك مُشرّعةً لهؤلاء الدُعاة، على اختلاف درجات تعاطيهم الفُصحى والعامية، فقد كان مُتصدّون لهم، في مقدمتهم الأديب الدكتور طه حسين، وعباس محمود العقاد والدكتور شوقي ضيف وسواهم. وكان لجميع هؤلاء أن يرتقبوا عودة الروح للعربية الفُصحى، مستشرفين مستقبلاً واعداً لها. بيد أن الأيام، ولا سيما ما نعيشُهُ راهناً، في ظل لغات التواصل الاجتماعي، لم تصدُق وعدها، وليذهب كلامهم هباءً منثوراً!

فطه حسين، رأى «انه في يوم غير بعيد، ستعودُ الحياة القومية إلى هذه اللغة، وستُصبح ليست لغة المثقفين فحسب، ولا لُغة الأدب فحسب، لكنها لغة المثقفين ولغة الأدب التي يفهمها الشعب كله»[5].

ولقد ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن النعرات الإقليمية مجرد فقاقيع وقتية، تبرز حيناً ثم تختفي، ويرجع الناس بعدها إلى التيار القومي العام، فاللغة العربية الفصحى تملك كل مقومات البقاء[6].

أما عباس محمود العقاد، فقد كان أكثر واقعيةً وعمق ثقابة نظر، إذْ رأى أن «الحملة على لغتنا حملة على كل شيء يعنينا، وعلى تقليد من تقاليدنا الإجتماعية والدينية، وعلى اللسان والفكر والضمير، في ضربة واحدة (..) زوال اللغة العربية لا يُبقي للعربي والمسلم قواماً يميزه عن سائر الأقوام»[7].

.. وفي مواكبة للمسألة في لبنان، فقد كان لها أن تُطرح، ولكن ليس بنفس الحدة التي طرحت بها في مصر، كما رأينا.

إشارة إلى أن الشيخ إبراهيم اليازجي (1847-1906) كان أحد المنافحين عن اللغة

5 المرجع السابق، ص16، منقول من مقالة لطه حسين، في مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، ج1، ص99 (من دون ذكر تاريخ).

6 المرجع السابق، ص16، من مداخلة له في ندوة «اللغة العربية في مواجهة التحديات»، العام 1984، الرياض (المملكة العربية السعودية).

7 المرجع السابق، ص16.

العربية الصحيحة، وراح ينتقد لغة الجرائد، عبر سلسلة من المقالات، نشرَها في مجلة «الضياء».

وفي العام 1964، من القرن الماضي، كان لسعيد عقل (1912-2014)، أن يدعو إلى الأبجدية اللاتينية، في كتابة العربية. وقد دُعيت بأبجدية عقل اللاتينية، احتوت ستة وثلاثين حرفاً!

وعلى غرار ما جرى في مصر، كان سجالٌ حادٌ بين الفريق الذي آزر سعيد عقل في دعواه، وبين الفريق المناوئ الذي ناوأ هذه الدعوى!

وإذْ ترسو سفينة العربية الفُصحى والعامية، عند شواطئ هذه الأيام، نجدُنا بإزاء الخبر اليقين الذي يأتينا به أحد المشتغلين باللغة، حيث يقول:

«... لقد أصبحت لغتنا اليوم كمئذنةٍ يلفّها الغبار، فالناطقون بها يضيقون بها، ويهربون من قواعد تراكيبها، بل إن بعض المتعلمين العرب لا يعرفون تركيب جملة عربية، سليمة السكنات والحركات. والأنكى من ذلك أننا نرى أن بعض أساتذة الجامعات، في أقسام اللغة العربية وآدابها، لا يدركون فصاحة القول، ولسانهم يلحن، ومعارفهم اللغوية، على كل المستويات، لا تتناسب وشهاداتهم الجامعية[8].

إذا كان لأطروحتنا أن تضيء اليوم على لغتنا العربية الواقعة في أسر لغات التواصل الاجتماعي، أو أقلَّه تحت عبئها، والولوج عميقاً إلى عالم هذه اللغات، متخيِّرين لغة الفيسبوك أنموذجاً، فإنه لا مندوحة عن التوقف عند جدل اللغة والتشكيل المعرفي- كتأسيس نظري لهذه الأطروحة- فنتبيّنَ، في القسم الثالث من بحثنا العلاقة التفاعلية بين لغة الفيسبوك والتشكيل المعرفي لمستخدميه، وهي علاقة طردية، أي في الاتجاهين. فاللغة مسهمةٌ في صناعة الفكر، والفكر مسهمٌ بدوره في صناعة اللغة، وكما تكون اللغة يكون الفكر، والعكس صحيح.

8 المرجع السابق، ص17 (من مداخلة د. هادي نهر- ندوة اللسانيات واللغة العربية، المنعقدة في تونس 1978).

في جدل اللغة والتشكيل المعرفي

إن اللغة خاصيةٌ إنسانية أصيلة، يتميّز بها الإنسان من دون سائر المخلوقات. وإذْ يُوصف الإنسان بالحيوان الناطق، وفق التعبير الأرسطي، فذلك بدلالتين: دلالة العقل ودلالة الكلام، وهما متكاملتان - كما أسلفنا - إلى حد التفاعل الخلاق. وعن الدلالة الثانية، أي اللغة، فهي أداة التفكير الرئيسة، تتجلّى قيمتها، من حيث أنها الصيغة التي تُحدَّدُ عبرها المفاهيم والمعاني المجرّدة.

إشارةٌ إلى أن التفكير والتعبير، في حقيقة الأمر، متلازمان، لا يستوفي أحدهما كفايته إلاّ مقترناً بالآخر، مُستعينين باللغة[9].

إن الصلة بين الفكر واللغة صلة وثيقة، فاللغة ما هي إلا الحقيقة المباشرة للتفكير. بمعنى أن التفكير ليس له أية وسيلة، يكشف بها عن نفسه، إلاّ اللغة. وبذا، فإن اللغة هي التي تُخرج العقل من صمتِه!

وبتعبير آخر، فإن الأفكار داخل العقل هي في حالة هيولية، تأتي اللغة لتجسِّدها وجوداً ناجزاً. فالأفكار، بحسب التعبير الفلسفي، هي لغة بالقوة، فإذا تمّ التعبير عنها غدت لغة بالفعل! علماً أن صياغة الشكل النهائي للغة، ليس دائماً من عمل العقل وحده، إنما تشترك معه العواطف والأحاسيس والانفعالات.

.. إن اللغة، كونها أداة التفكير ومجسِّدته، فقد مكّنت الإنسان من الشعور بذاته، ومن الاتصال بغيره من بني جنسه.

وإلى ذلك، وإذْ تُعتبر اللغة الوعاء الحاوي للثقافة ووسيلة التفكير الذي يُحدّد رؤيتنا للعالم ونواميسه، فقد شكّلت معرفتها أهمّ ركيزة لتحصين الهوية والذات والشخصية. من هُنا، فإن الهوية مفهوم ذو دلالة لغوية، إلى دلالاتها الفلسفية والاجتماعية والثقافية.

وإذْ نأتي المسألة، عبر علم اللغة الإجتماعي، الذي يكبُّ على فحص مميزات أية لغة

9 المرجع السابق، ص 43 و45.

من اللغات، يتسنّى لنا قراءة الأصول الجغرافية والإجتماعية لشخصٍ ما، إضافةً إلى مستواه التعليمي واثنيتِهِ وعمره، وجنوسته وجنسيتِه، أي جميع مجالات الهويات المصنفة، التي يتم اعتمادها في تصنيف الأشخاص، على نحو روتيني[10].

وفي إطار العلاقة الجدلية بين اللغة والتشكيل المعرفي، وكذا التذهين، يذهب المفكّر الأميركي إدوارد سابير (Edward Sapir) إلى أن الناس هم تبعٌ، في تفكيرهم وإحساسهم ومشاعرهم ونظرتهم إلى الكون، للعادات التي اكتسبوها من خلالها ممارستهم للغة قومهم. وقد أردف (في العام 1929)، أن دراسة صيغ لغة من اللغات، إنما هي، في الحقيقة، دراسة لصنع التفكير وطُرقه، عند القوم الناطقين بتلك اللغة.

ولقد صرح الفيلسوف الألماني ارنست كاسيرار (1874- 1945) (Ernst Cassirer) بأن تحليل أي لغة، إنما هو تعرّف مباشر على خصائص التفكير والمعرفة، عند الناطقين بها.

وفي السياق عينه، يذهب الألسني بانجمان وارف (1897 - 1941) (Benjamin Whorf) إلى القول: «إن الفروق القائمة بين صيغ الكلام، عند البشر، إنما تُنبئ بالفروق الموجودة بينهم في كيفية إدراك الواقع وتصنيفه»[11].

..وإذا كان لنا الوقوف على آراء بعض الفلاسفة، حول جدل اللغة والتشكيل المعرفي، نجدُنا بإزاء الإنكليزي فرنسيس بيكون (1561-1626)، الذي يذهب إلى أننا نستطيع أن نستشف دلائل ملموسة لأخلاق وعقول الشعب من خلال لغتهم. ويذهب الفرنسي إتيان كوندياك (1714-1780) إلى أن جميع الدلائل تؤكد أن كل لغة تُعبّر عن شخصية الإنسان الناطق بها، أما الألماني يوهان غوتفريد هردر (1744-1803)، فقد اقرّ بأن فكر وشخصية كل شعب مطبوعان في لغته. بل إن فكر الشعوب يتجلّى في شكل لغتها أكثر منه في أي مكان آخر.

10 راجع: اللغة والهوية، جون جوزيف، ترجمة د. عبد النور خرافي- كتاب عالم المعرفة، العدد 342، أغسطس آب 2007، صادر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، ص47.

11 مرجع سابق، ص 159- 160 (ندوة: اللغة العربية والوعي القومي).

وقد أجمل الأميركي رالف والدو إمرسون كل ذلك (1844)، إذْ قال: «نستطيع الاستدلال إلى روح الشعوب، بشكل كبير، من خلال النظر في لغتها، والتي هي بمنزلة صرح، أسهم فيه كل شخص ذي قوة، على مدى مئات السنوات»[12].

وإذْ عمد دانتي الليغيري على تحليل اللهجات الإيطالية، في كتابه «عن بلاغة العامية» (De vulgari eloquentia)، فقد تحصّل له «أن لهجة الرومان ليست عامية بقدر ما هي عبارة عن مصطلحات دنيئة»، وليضيف «... ولا غرابة في ذلك، حيث ينفرد أهل روما عن بقية الإيطاليين ببذاءة أخلاقهم ومظهرهم»[13].

كأننا بهذا الكاتب يرى أن لغة أهل روما هي على صورة الناطقين بها خُلُقياً، وتحاكي مظهرهم الخارجي!

وفي كلمة جامعة، يذهب اللغوي الدنماركي أوتو جسبرسون (1860-1943) إلى القول: «كما هي اللغة، فكذلك الشعب»[14].

وترجمةً لهذا القول، فإن اللغة ثمرة من ثمار الفكر، وآلة من آلاته. فإذا كان الفكر البشري بسيطاً بدائياً، أنتج لغة مادية بسيطة (مثالنا على ذلك لغة العصر الجاهلي المغرقة في حسيتها)، وإذا تطوّر الفكر وتحضّر، تطورت معه ورقيت (كما غدا شأن العربية في العصر العباسي، العصر الذهبي للحضارة العربية)[15].

وفي هذا المعنى، لجهة العلاقة بين اللغة والعقل، يذهب نعوم شومسكي، صاحب الاتجاه التوليدي، إلى أن طبيعة اللغة هي نفسها طبيعة العقل، وأن دراسة تكوين النماذج الشكلية المعبَّرة عن القدرات العقلية لمستعملي اللغة يقودنا إلى التحويلات والقواعد النابعة منها،

12 راجع، عَبْرَ منظار اللغة: لِمَ يبدو العالم مختلفاً بلغات أخرى؟ تأليف غاي دوتشر، ترجمة حنان مظفر، كتاب عالم المعرفة، رقم العدد 429، تشرين أول 2015، الكويت، ص19.

13 المرجع السابق، ص20.

14 المرجع السابق، ص21.

15 راجع، لُغتنا.. كيف ندركها؟ إعداد وتأليف جورج فرج، توزيع دار الشمال للطباعة والنشر، ص31.

ويُبرِّر العلاقة بين اللغة والعقل»[16].

في إسدالٍ للستار على المسألة، كان لنا أن نُدلي بدلونا، فذهبنا إلى القول: «.. وإلى دورها (أي اللغةِ) التواصلي، على المستوى اليومي، فهي حاملةٌ حضارةً، وعنوانٌ للثقافة تليد! وإلى كل أولئك، فإن اللغة، خلاف ما يعتقد بعضٌ ممن لديهم قصورٌ في تقويم دورها، ليست وعاء الفكر وكفى، وليست وسيلة التعبير عن أفكار تكوَّنت، بل هي جزء لا يتجزأ من عملية التفكير نفسها. واستطراداً، فهي ليست إهاب الفكر، كما يُتَوَهَّم! إنها مُنتسجةٌ في لحم الفكرِ، وبالغةٌ عُمق عظامه، وساريةٌ مسرى البرقِ في عصبِهِ، فيروحا إلى جدليةٍ، لا ينقطع لها نسل، فتحارَ أيهما الخالق وأيهما ا لمخلوق!»[17].

لغات التواصل الاجتماعي من منظور جدل اللغة والتشكيل المعرفي/ الفيسبوك أنموذجاً!

أ- الفسابكة: جماعاتٍ، وموضوعاتٍ واهتمامات/ قراءة تحليلية!

كتب الطبيب حُسام حافظة على صفحته في الفيسبوك (الأحد 2016/11/28)، مُصنِّفاً مستخدمي الفيسبوك، فتحصّل له الآتي: (أثبتنا كل النصوص الفسبوكية، كما هي، من دون تصحيح أي خطأ لغوي، نحوي أو صرفي، حِرصاً على الأمانة في النقل).

«ناشطي الفيسبوك أنواع: جماعة صباح الخير مساء الخير/ جماعة شوفوني ما أحلاني/ جماعة السياسة/ جماعة تروقت تغدّيت وتعشّيت/ جماعة رحت وجيت/ جماعة الاجتماعيات/ جماعة النقد والانتقاد/ جماعة النق والشكوى/ جماعة النكت والضحك والمزح/ جماعة كل شي».

ويُضيف معلقاً: «التنوّع جميل، ولكل إنسان طبعه واهتماماته، وهذا غنى الطبيعة البشرية».

16 أنظر، مجلة القاهرة، العدد 163، حزيران 1996، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص15.

17 راجع: مقابسات زريقية بين شاعر الفيحاء سابا زريق وسابا الحفيد، مؤلّفه مصطفى الحلوة، (من دون دار نشر)، ص384.

.. يتدخل عماد بريش، مُخاطباً الدكتور حافظة: «وفي أسّى جماعة اللايكات»، ويعقبه يحي الماروق، قائلاً:» وفي جماعة الفوتبول».

أما المتدخل بسام قراعلي، فيضيف: «نسيتْ جماعة المراقبين فقط، بس بيقروا المكتوب، وما دخل بشي».

.. من جديد، الدكتور حافظة: «صباحو عزيزي، ايه صح، هودي كتار كمان، بس هودي ما بعتبرهن ناشطين، متل ما قلت هودي مراقبين».

وهنا يدخل على خط المحادثة رشاد زيني، مُطلقاً ضحكة: ههه، ويُردف قائلاً: «بهنيك على روحك المرحة وخفة دمك وقدرتك على توصيف الواقع بلطافة ولياقة، معك كل الحق، هذا هو تصنيف الفايسبوكيين».

ومن ثم يتدخل أسامة هوّاش، مُستدركاً: «وجماعة أمانة برقبتك ليوم الدين، قول الله يشفيه أو الله يرحمو، وجماعة ما تخلّيها توقف عندك، أمانة انشرها، يعني باختصار جماعة الإكراه بالدين».

ومسك الختام مع مانو جوال (Mano Joêlle)، بنص كتبته بالحرف اللاتيني:

«Ana min jame3t shouf 7adrtak 3a min 3am tent2d elyom w3a min manou 3ejbak»

الدكتور حافظة، لا يُعلق بل يُطلق قهقهة: ههههه (تشتمل على عددٍ من الهاءات!).

في وقفة متأنية عند هذا النص، متناً وما استجرّ من حوارٍ، ومن تعقيبات، نجدُنا بإزاء ثلاث عشرة جماعة فيسبوكية، وواحدة لم تنل اعترافاً، هي جماعة المراقبين. هذه الجماعات يغلب على تشكيلها الفكري، كما يبدو من التصنيف – والتصنيف يشي بتوصيف – اهتمامات عادية، لا تتجاوز اليومي، وذلك بتناولها موضوعات مألوفة، وليست على جانب من الأهمية، اللهم باستثناء «جماعة السياسة» و«جماعة النقد»، شريطة أن تكون مقاربة هاتين الفئتين مُتسمةً بالموضوعية. وقد استثنينا الانتقاد، لأنها وردت ههنا، وكأنها تعني أولئك الذين لا

يُعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، كما يُقال.

إشارةٌ إلى أن التصنيف الذي اعتمده الدكتور حافظة، على أهميته، قد لا يشمل كل فئات الفسابكة حصراً، ولكنه رصد عدداً لا بأس به منهم.

خارج إطار التصنيف الذي يشي، كما أسلفنا، بالاهتمامات المعرفية، لكل جماعة من الجماعات الفيسبوكية، وفي رصد للغة النص التي يتقاسمها، إلى صاحبه، بضعة أشخاص، نجدُنا بإزاء أنماط لغوية ثلاثة، أوّلها، ما حبّره الدكتور حافظة بلغةٍ عربية مفصّحة، واضحة، شابتها بعض الأخطاء اللغوية التي لا يُعتدّ بها.

وعن التعقيبات الحوارية، فقد جاءت بمجملها بالعامية الركيكة، على وضوح.

وأما عن النمط الثالث، فقد جاء في التعقيب الأخير لـ«مانو جوال» التي توسلت المحكية العربية بالحرف اللاتيني، وقد طعمتها ببعض الأرقام التي تسدّ مسدّ الحروف العربية التي لا مُعادِل لها باللاتينية.

وثمة ملاحظة على جانب من الأهمية، تُقرأ من بين السطور، إذْ نلاحظ أن الدكتور حافظة الذي أورد نصه الأساسي بعربية سليمة، أُضطر إلى مجاراة محاوريه، فعمد إلى العامية ليُجيب عن بعض ما طرحوه. وما نبغي قوله، في هذا المجال، أن العامية تستجرّ العامية، مما يُغلّب النزوع إليها، في دفق الحوارات التي نشهد على صفحات الفيسبوك، وبذا يضيق هامش اللغة الفصحى، مع الاستدامة في توسّل العامية.

وثمة ملاحظة استكمالية، خلاصتُها أن الدكتور حافظة آثر العامية في حواره مع المتدخلين، من مُنطلق الاستسهال، ذلك أن الكتابة أو التكلم بالفُصحى السليمة تستدعي وقتاً وجهداً وانتقاءً لكلمات تُوضع موضعها. هذه المسألة الأخيرة هي، في رأينا ورأي كثيرين، من أهم العوامل التي تدفع الفسابكة إلى خِيار العامية!

.. وعن تصنيف شخصيات هذا النص، من منظور التصنيف الذي وضعه الدكتور حافظة، فهي تنتمي إلى جماعة النقد، كونها تُقدّم مقاربات مختلفة حول جماعات الفسابكة.

وتفصيلاً، فإن الدكتور حافظة يبدو إنساناً مثقفاً وذا تفكير منهجي، إذْ أتانا بنص متماسك، تقدّم بأطروحة، مفصلاً عناصرَها، وليخلص إلى نتيجة منطقية، تبدّت من خلال قوله في ختام النص: «التنوّع جميل، ولكل إنسان طبعه واهتماماته، وهذا غنى الطبيعة البشرية». وإلى ذلك - وهنا بيت القصيد - بدا الدكتور حافظة ملمّاً بعربيّة سليمة، إلى حد مقبول، مما يشي بتفاعل بين بُعدي التعبير والتفكير لديه، أو جدل اللغة والتشكيل المعرفي.

وأما عن المتدخلين، ممن توسّلوا العربية المحكية، بالحروف العربية، فقد بدوا لنا من الفسابكة العاديين، ومن ذوي التذهين الفكري البسيط، ولتتوازى لغتهم مع قدر هذا التذهين.

وأما عن المتدخلة الأخيرة، التي توسلت العربية المحكية، بالحرف اللاتيني، فقد بدا الاضطراب على ترابط الكلام في «البوست» الذي أدلت به، ونمَّت عن قصورٍ لغوي، كما عن سذاجة في تعليقها!

.. استتباعاً، ومن خلال مُتابعتنا الحثيثة للجماعة الفسبكية، من منظور اللغة التي يتوسلون، نجدُنا بإزاء خمس فئات: الذين يكتبون بلغة فصيحة راقية/ الذين يكتبون بلغة مفصّحة سليمة مبسطة/ ذوو اللغة الثالثة، مفصّحة، مع اعتماد التسكين وعدم إعمال الصرف والنحو/ الذين يتوسلون العربية المحكية الصِرفة بالحرف العربي/ الذين يكتبون بالمحكية العربية، وبالحرف اللاتيني، ويطلق عليهم جماعة الفرنكو أو العربيزي!

في إغناءٍ للمسألة، حول توصيف الفسابكة، وما يُنتِجون: فكراً ولغةً، يذهب الدكتور أحمد بيضون إلى القول: «.. هكذا توجد صفحات رفيعة المستوى وأخرى ساقطة. وتوجد صفحات وافرة النشاط وصفحات ميتة أو شبه ميتة. يجتذب بعض الصفحات زواراً بالألوف، ويمتلك نفوذاً هائلاً، كذاك الذي ظهر في حركات التغيير العربية. فيما تبقى أخرى بلا أدنى تأثير، هذا كله يتبع الأشخاص: أمزجتهم وكفاءتهم والأهداف: أي القضايا التي يحددونها لوجودهم في الموقع، ويتبع جهودهم»[18].

18 راجع، دفتر الفسبكة: نُتف من سيرة البال والخاطر، أحمد بيضون، شرق الكتاب، ط1، 2013، ص11.

دفاعاً عن مواقع التواصل الاجتماعي/ «شُرعةٌ» جديرةٌ باعتمادها!

هذا النص نقلناه عن صفحة الفسبوكي الناشط محمد الأحدب (تاريخه 2016/12/10):

«البعض لا تُعجبهم مواقع التواصل الاجتماعي، ويقولون عنها ما يقولون. ولكن تجربتي الخاصة في هذا الأمر هي التالية: قبل أربعة (أربع) سنوات من اليوم، كان عدد أصدقائي وأصحابي محدود جداً (...) حين دخلت مواقع التواصل، كانت تجربة بدائية دون هدف محدد أو غاية محددة. ولكن مع الوقت، بدأت أحسّ بتفاعل الأصدقاء مع ما أنشر على صفحتي، لم أكن أدرك أن لديّ القدرة على الكتابة، بهذا الشكل اليومي والمتواصل. وبدأت أحس بمسؤولية اجتماعية تترتب على عاتقي تُجاه مدينتي وأهلي، وأحس بأنني اكتسب، مع الوقت، نوع (نوعاً) من المحبة والاحترام، من قِبل من أتواصل معهم. حاولت أن أبتعد عن المهاترات المباشرة وغير المباشرة، وحاولت جاهداً أن أكون موضوعياً في تحليلاتي قدر الإمكان، لأنني أعتبر أن الموضوعية شيء والحياد عن القضايا الاجتماعية شيء آخر، فأخطأت في بعض الأحيان، وأصبتُ في أحيان أخرى. هذا الأمر بنى لي مجموعة صداقات، أفتخر من كل قلبي بأنني تشرّفت بمعرفتهم، من خلال مواقع التواصل، وهم اليوم أصدقاء فعليين، نفكّر معاً ونناقش معاً، وأصبح بيننا خبز وملح. لدي الكثير من الصداقات مع الجنس اللطيف، منهن الكثيرات اللواتي لا أعرفهن شخصياً، ولكن نتفاعل بكل مودة واحترام إنساني، كأفراد مجتمع نتشارك ذات الهموم، ونعيش ذات الهواجس.

اعتبرت التواصل الإجتماعي رسالة، واجب (واجباً)، فرضهُ عليَّ حُبي لمدينتي (...) مدينتي ليست، كما يصورها الإعلام، مدينتي مدينة الخير وأم الفقير ومدينة الإنتماء، وليس التعايش؛ فنحن طرابلسيون، بالدرجة الأولى، ولسنا مسلمين ومسيحيين!

مواقع التواصل الإجتماعي هي انعكاسٌ لشخصيتك ورغبتك وتطلعاتك وأهدافك. فمن لا يرى فيها سوى بضعة (بضع) فتيات أو بضعة (بضع) مظاهر وتفاهة أو سخافة، فهو لا يريد أن يرى أي شيء غير ذلك، أما أنا شخصياً، فمعتز بتجربتي ومفتخر بها، وأعتبر أنني استطعت أن أضيء شمعةً، في هذا العالم الافتراضي، الذي سنكتشف مع الوقت مدى تأثيره في حياتنا الاجتماعية الحقيقية».

... في قراءة لهذا النص الرائع، فهو، برأينا، بمنزلة «شُرعة» لمستخدمي مواقع التواصل الإجتماعي. فقد نمّ فيه واضعهُ السيد محمد الأحدب (موظف في وزارة الشؤون الإجتماعية) عن رؤيا ثاقبة، على خُلُق رفيع، فهو، في نقده موقف مُعادي هذه ا لمواقع، لم يتعرّض لهم بأي كلام مسيء، بل ترك لهم الخيار ليقولوا ما يُريدون قوله! ثم راح إلى الكشف عن تجربته الذاتية في عالم مواقع التواصل، فرأى أنها فتحت له آفاقاً واسعة من الصداقات المبنية على الاحترام والمحبة. وقد أدخلته هذه «المواقع» في مغامرة، خرج منها ظافراً، فقد استحثت عنده قدرة على الكتابة كامنةً، ودفعته إلى التفاعل مع أقرانه، في مسائل شتى. وبتواضع العلماء، اعترف بأنه، وهو يُقارب قضايا كثيرة تحت سقف الموضوعية، أصاب أحايين وأخطأ أخرى! وفي رصد راءٍ لدور مواقع التواصل الاجتماعي، ذهب إلى أنها تعكس شخصية مستخدمها، كما رغبته وتطلعاته والانتظارات. وهو يرفض من يرى، في هذه المواقع، بضع فتيات ومظاهر للتفاهة والسخافة، مُتعامياً عن رؤية عالمها الحقيقي الثرّ!

وفي موقف ينمّ عن التزام وطني، يرى أن حبه لمدينة طرابلس دفعه إلى اعتناق رسالة «التواصل»، متخذاً من مواقعه منصةً لجلاء صورة هذه المدينة. وعبر رؤيا استشرافية، يذهب إلى أن عالم التواصل الإفتراضي سوف يتكشّف، في مقبل السنين، عن مدى تأثيره في حياتنا الإجتماعية المعيوشة!

.. في توصيف لصاحب النص، نخلص إلى أنه شخصٌ راقٍ تعبيراً، وراقٍ في أسلوبه، جامعاً المجد من طرفيه: مجد اللغة ومجد الفكر، يتجادلان إلى حدّ التماهي الخلّاق.

ويبقى السؤال: هل يُمثّل هذا النص، بلغته الرائعة، والتشكيل الفكري الراقي لدى صاحبه، نموذجاً لما يمكن أن يكون عليه التعبير على صفحات مواقع التواصل الإجتماعي لدينا؟ هي تجربة، بل هي شهادة حية، ومن منطلق «وشهد شاهدٌ من أهله»، تقول بالفم الملآن إن ثمة إمكانيةً لتكون العربية الفصحى اللغة الطاغية على هذه المواقع!

هي تجربة /شهادة، تنضوي إلى تجربة/ شهادة ابعد غوراً، يُمثلها شيخٌ من كبار شيوخ الثقافة في لبنان والعالم العربي، عنينا الدكتور أحمد بيضون، عبر كتابيه الطريفين: دفتر الفسبكة والفسبكات (الدفتر الثاني)، وهما يُشكلان فتحاً جديداً في عالم الفسبكة!

علاقة تكاملية قائمة على وشائج العقل واللغة/ أحمد بيضون شاهداً!

عَبْرَ الكتابين اللذين ذكرناهما آنفاً، فتح الدكتور أحمد بيضون أفقاً جديداً، في عالم الفسبكة. وبحسب الكاتب والشاعر عقل العويط، فإن بيضون جاء ليُحرِّر اليومي من يوميتِهِ وأفوليتِهِ، ويرتقي به إلى لون من الأدب الراقي العابر الآني إلى ما يدوم[19].

ولقد أثبت الدكتور بيضون، وفق العويط، انه بالإمكان الارتقاء بالهامشي إلى الصميم من جوهر قضايانا، في حين «أن كُثراً من الرواد الفايسبوكيين شطحوا بعيداً، وغالوا في حميمياتهم، ونشر غسيلهم، والاستخفاف بالموضوعية، فتبسّطوا في التحدث عن كل شيء، وبكل اللغات المتاحة وغير المتاحة، من الزنار ونازل، فمدّوا أرجلهم، وأخذوا راحتهم، بحيث أن الفايسبوك بات لهم على شبه تلفزيون الواقع، فأخذهم بخفة غواياته ومطبّاتِهِ وفخاخه الانفعالية، إلى مطارح في الكتابة، يغلب عليها السخيف والانحطاطي والفضائحي والساذج واللامستحب والمقذع. وسرعان ما نقلوا كتاباتهم (..) إلى عوالم الكتاب المطبوع، فإذا بها لا تعدو كونها لغة مسطحة ساذجة، فارغة من أي مضمون مهيب، وزبداً آفلاً ممجوجاً سريع الزوال، وغير صالح للحياة الأدبية والفكرية (...) أما هنا، في كتابي أحمد بيضون، فليس ثمة أي صورة مناقضة للصور التي نعرفها للكاتب الكبير (...) هناك فقط عقل دينامي فاعل ومتفاعل، حديث وطليعي (..)لا يترك له – أي للفايسبوك- أن يجرّه إلى ما لا يريده لنفسه (...) وجود مايسترو واحد في وجوه كتاباته المتنوعة!»[20].

وعلى غرار عقل العويط، فإن الكاتب والشاعر يوسف بزي، في مقال له، ذهب إلى أن أحمد بيضون، اللغوي الحاذق، ينحتُ أدباً فايسبوكياً[21]. ففي هذين الكتابين الصادر أولهما في العام 2013 والثاني في العام 2015، دأب الدكتور بيضون على كتابة نتف من سيرة البال

19 أنظر صحيفة النهار الالكترونية بتاريخ 20/2/2016، مقالة بعنوان: «دفتر الفسبكة» و«الفسبكات» لأحمد بيضون: المايسترو.
http//:newspaper.annahar.com/article314084/

20 المرجع السابق، عقل العويط.

21 راجع، مقالة يوسف بزي في مجلة منارات- ابو ظبي، وهي بعنوان: الباحث والمؤرخ اللبناني أحمد بيضون: اللغوي الحاذق ينحت أدباً فايسبوكياً، بتاريخ 29/11/2015.

والخاطر، حسبما جاء في العنوان الفرعي للكتاب الأول، في حين دعا هذه النُتف بالخواطر، في الكتاب الثاني.

في الكتاب الأول، غطّت الفسبكات الفترة الممتدة بين 2011/5/4 وحتى 2013/5/24، في حين أنها استُهلَّت، في الكتاب الثاني، بتاريخ 2013/12/12 ولتتوقف في 2015/5/11.

ولقد رأى يوسف بزي أن في الفيسبوك، تحضر هوية كل فرد، وبه يتمرأى الأنا والآخر، وهو فن تلزمه مهارة لغوية خاصة، وموهبة، وثقافة وفطنة.. كل أولئك يتكثّف في كتابة «الستاتوس». وفي هذا المجال، وارتقاءً بالأدب الفيسبوكي، يُشير بزي إلى مقترح لبيضون، توجه به إلى أقرانه من الفسابكة، فدعا إلى «صوغ أسلوب أدبي- ثقافي- سياسي لكتابة الخاطرة أو عرض حال أو الستاتوس أو البوست. تهذيب فن الستاتوس وتطويره، كجنس أدبي وليد، يخضع لسرعة الزمن الفايسبوكي وكثافته، يخضع لشرط الاختصار واكتمال المعنى بأقل عدد من الكلمات، كما يخضع لفن الطرافة ورقي التعبير ومهارة السخرية والكاريكاتورية»[22].

وفي تقويم لدور بيضون في عالم الفيسبوك، يرى بزي انه أبرع الفسابكة، وأسرعهم في التجدّد، وشيخهم من غير منازع!

في تثمين لـ«دفتر الفسبكة»، وقد عُرف صاحبه بلغته الجاحظية الكلاسيكية ومقالاته المكتوبة، بطريقة تُشبه حياكة السجاد العجمي، يذهب الكاتب رامي زيدان إلى أن المنحى الذي سلكه بيضون يُشكّل تحوّلاً وفتحاً منذراً، بما تؤول إليه التحولات الميديائية[23].

ويبقى السؤال: هل تبقى هذه التجربة، حول مصير الكتابة الفيسبوكية، التي تبدّت من خلال «دفتر الفسبكة»، ولاحقاً عبر «الفسبكات» (الدفتر الثاني)، مُبشِّرة بعهدٍ جديد، بما يُعيد إلى العربية الفصحى بعضاً من اعتبار، أم أن عُملة العربية الفايسبوكية الرديئة والهجينة ستطرد عملة العربية الفُصحى أو المفصّحة التي صادفنا الكثيرين من المنتصرين

22 يوسف بزي، المرجع ا لسابق.

23 راجع: دفتر الفسبكة لأحمد بيضون: يوميات تؤول إلى مستقبل ما في الكتابة، صحيفة النهار- النشرة الإلكترونية، بتاريخ 30 كانون الأول 2013.
http//:newspaper.annahar.com/article95487/

لها، مقايسين في ذلك على المقولة التي تذهب إلى أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول، وفق قانون كريشام الاقتصادي (Gresham's law)؟! قد يكون في المسألة وجهان، كما يقول النحويون! بيد أننا غير مُتفائلين بمستقبل العربية، فصحى ومفصَّحة، فقافلة وسائل التواصل الإجتماعي، على اختلافها، ماضيةٌ، تُغذُّ السير ،وليس من قدرة حقيقية على إيقافها، أو تعديل مسارها!

إنه قدرُ التواصل الإجتماعي الداهُمنا، ولا قدرة على ردِّه، وجُلّ ما نستطيع قوله: اللهم إنا لا نسألك رد القضاء الفايسبوكي وأضرابه، ولكن نسألك اللطف فيه!

حاشية ذات مغزى!

في تتبّع لنتائج الشهادة المتوسطة في لبنان، للأعوام الأربعة الأخيرة، على صعيد مسابقة اللغة العربية، فإن نسبة الناجحين في هذه المسابقة، تتدنى عاماً بعد عام، وبشكل مطّرد، مُنذِرةً بمصيرٍ مشؤوم للغتنا الأم!

في تقويم لهذه النتائج، في مسارها الانحداري، راح كل طرف يُلقي المسؤولية على الآخر، فبعضهم رأى صعوبة في طرح الأسئلة، وبعضهم عزا الأمر إلى سوء تصحيح المسابقات، وآخرون حمّلوا المسؤولية للطلبة المعرضين عن العربية إلى وسائل التواصل الاجتماعي! قد يكون في كل أولئك قدرٌ من الصحة، ولكن لنفتِّش عن مناهجنا، في ما يعود للغة العربية، وعن أساليب التعليم، وعن الجهاز التعليمي لدينا الآتي، بغالبيته، من القرون الوسطى! ولنسَلْ، قبل ذلك وبعد ذلك، عن حال الأمة! ويحضرُني في هذا المجال قول أمتنا، على لسان الشاعر أبي نواس:

تعجبينَ من سقمي		صحتي هي العجبُ!

ملحق
نماذج فايسبوكية للتأمل والاعتبار

أ- نماذج يطبعها التلوث اللغوي والأخلاقي:

- من جماعة السياسة (وفق تعبير الدكتور حافظة): عبد القادر أحمد الدهيبي، كتب في صفحته على الفايسبوك (2016/12/14):

«يا جماعة مشغول بالي عالنائب كاظم الخير! طافت الدنيا وغرقت البيوت وما حدا شافو ولا سمعنا صوته! حدا يطمّنا عليه رجاءً..

احدهم: البرد بيعملو مغص، ممغوص حالياً.

آخر: ههههه..

آخر أيضاً: طلع عم يجهز حالو لمقابلة مع بولا يعقوبيان، شكلو في شي عم يحفظو كان (صورة وجه ضاحك)

أحدهم: بكون غرق بشي مجرور»!!!

* * *

من جماعة تروقت، تغدّيت وتعشيت (وفق تعبير الدكتور حافظة): جمال بيضون، كتب في صفحته على الفايسبوك (2016/12/14):

«بضيافة الأخ عبد الله فواز/ قلتلو ما بدي لا خواريف ولا لحم مشوي ولا بط ولا منسف ولا كبسي، بدّي عصّورة فراكي وصحن كموني/ فاجأني بأكثر مما طلبت بصيودية السمك ومسقعة الباذنجان وصلتت (سلطة) البطاطا مع التوم والكزبرة والحامض، أكلات بلدي والله/ يا رفقاتي الأكل كان بشهّي، ذكّرنا بالزمن الجميل من بيت زوق الكرم والنفوس الطيبة،

أدامهم الله، وألله يديم كل نعمي وتمنينانكم تكونو معنا»

(وكتب تحت هذا البوست: الصورة مع الأخ أبو علي شمص- وتبدو أمامهما مائدة عامرة).

ب- نماذج من الدكتور أحمد بيضون/ دفتر الفسبكة» و«الفسبكات/ الدفتر الثاني»

أولاً- من دفتر الفسبكة:

«2011/5/4: من حين لآخر يمر بخاطري سؤال: لِمَ سُمّي الزعيم زعيماً؟ لم أحقق في الأمر في معجم قط. ولكن اعتقد بالاستناد إلى الدافع النفسي وليس إلى البحث اللغوي، أن الزعيم هو من كان أتباعه مزعومين، وأنه سمِّي زعيماً لهذا السبب. الزعيم أقوى من ا لزاعم، اسم الفاعل (زاعم) يفعل فعلته ويمضي. وأما الصفة المشبهة (زعيم)!.. يا لطف الله!.. انظروا حولكم: هل ترون أحداً منهم يقبل أن يمضي؟ في كل حالٍ لا أراها اتفاقاً هذه القرابة التي أنشأتها اللغة بين الزعماء والمزاعم، ولا تلك التي جعلتها بين الأبطال والأباطيل».

تعقيب: رسالة في السياسة والاجتماع، بأسطر قليلة وبلغة راقية، تُغني عن مطالعة مطوّلة! إنه الأدب الحلال! (م.ح).

* * *

«2012/2/17: اللهم رُدّه أسفل سافلين. وألغِ حسابه الفسبوكي إلى دهر الداهرين. ولا تقبل فيه شفاعة الفرندات ولا الفرندين، إن لعنتكَ كانت على الكاذبين. آمين!»

* * *

«2012/5/17: بيت بمعازل كثيرة!»

تعقيب: يُحاكي كتاب كمال الصليبي بيت بمنازل كثيرة، وهو يتحدث عن وضع لبنان، بطوائفه ومناطقه! وقد تم استبدال كلمة معازل بمنازل! وفي ذلك تعبير أفصح سياسياً واجتماعياً. (م.ح).

ثانياً- من «الفسبكات / الدفتر الثاني»

«18 كانون الأول 2013: من معلقة فارس فرسان البكالوريا:

ونشرب إنْ وردنا الماءَ صفواً ويشربُ غيرُنا كدراً وطينا

تضْرَبْ صحيحْ على هالصبح! مطرحْ ما يسْري يهري!

(تذكرته بسبب أزمة المياه الجارية في بيروت... الأزمة هي الجارية لا المياه)»

تعقيب: ينم هذا البوست عن تضلُّع في الأدب العربي، وعن سخرية رائعة ودعابة لفظية، إضافةً إلى توسله بعض كلمات من فصيح العامة، ولا بأس في ذلك!».

* * *

«5 شباط 2014: بيل غيتس يتخلّى عن رئاسة مجلس الإدارة في مايكروسوفت. هذا يشبه كثيراً ما يحصل دورياً في الأحزاب اللبنانية !!!... تقريباً، أعني.. سامحوني إن أخطأت.

* * *

«21 كانون الثاني 2015: هل يجب اعتبارُ الجينز الممزّق، عندما نشاهده على البعض من ذوي (أو من ذوات) النعمة، علامة تمثُّل بالفقراء وشعور بقيمتهم أم مطاردةٌ لهم لتجريدهم من أي شيء، يدلُّ على وجودهم أو يُوجد لهم فيه أثر؟».

الدكتور بسام بركة *

الترجمة سبيلاً إلى النهوض باللغة العربية
المنظور اللساني الحديث

في نهايات القرن الماضي، عندما بدأت حركة الترجمة تستيقظ من سباتها في العالم العربي، علت بعض الأصوات لتتساءل عما إذا كانت الترجمة إلى لغتنا الأم إثراء للمعرفة العربية أم استلاباً لهوية أبنائها. لكن هذا التساؤل ما لبث أن تحول إلى تقريظ للترجمة ودعوة إلى تشجيعها عبر إنشاء المراكز والمنظمات التي تعنى بنقل المعارف الأجنبية إلى اللغة العربية. فبعد أن جاء تقرير اليونسكو عن الترجمة في العالم العربي في بداية القرن الحالي ليُبيّن إلى أي مدى يتقاعس العرب عن الترجمة إلى لغتهم وكيف يبتعدون بنتيجة ذلك عن الانخراط في ركب الحضارة المعاصرة، انتبه أصحاب السلطة العرب إلى ضرورة اعتماد سياسة التشجيع والدعم لكل ما يمتّ إلى الترجمة بصلة. لذلك، وبمناسبة الدورة التاسعة عشرة لمجلس جامعة الدول العربية التي عُقدت بالرياض يومي 28 و29 مارس/آذار 2007، أصدر قادة الدول العربية إعلاناً جاء فيه عزمهم على إطلاق «حركة ترجمة واسعة من اللغة العربية وإليها». والجدير بالذكر هنا أنّ هذا الإعلان لا ينحصر فقط في الاهتمام المباشر

* رئيس جامعة الجنان (طرابلس، لبنان) - أمين عام اتحاد المترجمين العرب

بالترجمة بحد ذاتها، بل ينطوي كذلك، ومن بين أمور كثيرة، على أنّ هذا النشاط الترجمي المطلوب إطلاقه إنما يهدف إلى «تعزيز حضور اللغة العربية في جميع الميادين بما في ذلك وسائل الإتصال والإعلام والإنترنت»، وخُصِّص بالذكر من بين هذه الميادين «مجالات العلوم والتقنية». وقد تُرجم هذا الإعلان في أعمالٍ عديدة دعمتها معظم الدول العربية، ومن أهمها دول مجلس التعاون الخليجي، من مثل: تشجيع التخصص في دراسات الترجمة في التعليم الجامعي، دعم المؤسسات الخاصة التي تُعنى بالترجمة إلى العربية ونشر الكتب المترجمة، تخصيص جوائز عالمية للمترجمين وللأعمال المترجمة في مختلف مجالات العلم والمعرفة، عقد المؤتمرات والندوات والحلقات العلمية حول الترجمة وأدواتها وسبُل تحسين الأداء فيها.

وإذا كان الرابط بين الترجمة وإغناء اللغة العربية قد بات معروفاً ومُسلّماً به، فإنّ السؤال لا يزال حاضراً يرتبط بالآليات أو المسارات التي تعتمدها الترجمة في سبيل إثراء اللغة العربية والنهوض بها. من أجل الجواب على هذا السؤال، سنستعين ببعض المبادئ الأساسية التي يقوم عليها علم اللسانيات والتي يمكن أن تلقي الضوء على أوجه عديدة من هذه الآليات والمسارات.

مسألة المصطلح

في البداية، لا بد من التوقف عند المفردة أي الكلمة في اللغة العامة والمصطلح. فالعلماء يركزون على الاختلاف الجذري بين المصطلح والمفردة. يُحدد الباحث الفرنسي «لويك ديبيكر» المصطلح انطلاقاً من علاقته باللغة وكذلك بالمجال المعرفي الذي ينتمي إليه. فهو يقول: «إن المصطلح إشارة [علامة] لغوية متخصصة (تقنية أو علمية)، وهو يتكوّن من دلالة تُشير إلى مفهوم [وتُسمّيه]. الدلالة لغوية، في حين أنّ المفهوم ذهني»[1]. هنا نستطيع بنتيجةً هذا التعريف أنّ نؤكد وجود ازدواجيةٍ في طبيعة المصطلح، فهو كلمة، مثل سائر مفردات اللغة، ولكنه يُعدّ كلمة ذات طبيعة خاصة، وهي أنه يُسمّي المفهوم عبر ارتباطه الذهني به ارتباطاً مباشراً. من جهةٍ أخرى، إذا كانت «قيمة» الكلمة العادية تأتي من علاقاتها ومواقعها النسبية في النظام اللغوي، فإنّ المصطلح يستقي قيمته أساساً لا من العلاقة بينه وبين الكلمات الأخرى (فهو كلمة مثل سائر الكلمات) وحسب، بل خصوصاً من العلاقات بين المفهوم الذي يُسمّيه والمفاهيم الأخرى التي تنتمي إلى المجال نفسه. لذلك، يُركّز علماء

1 Loïc Depecker, Entre signe et concept. Eléments de terminologie générale, Paris, Presses Sorbonne Nouvelle, 2003, 198 p., p. 112

اللسانيات على التمييز بين «المدلول» الذي يرتبط بالكلمة (وباللغة) و«المفهوم» الذي هو بنية ذهنية محض.

يقول «ميشال لوغوارن» في هذا المجال إن المفردة في اللغة تحمل مدلولاً ولكنها لا تحمل مرجعاً. إنها تعبِّر عن مجموعة الخصائص المحددة، بدون الرجوع لأي شيء موجود في أي عالم من العوالم. فكلمة «حصان» مثلاً تنتمي إلى اللسان العربي ولكنها لا ترجع (في اللسان وبغض النظر عن أي جملة أو عبارة استعملت فيها) لأيّ حصان، واقعياً كان هذا الحصان أم متخيَّلاً. إنما هي تحمل خصائص مجرَّدة قد تنطبق على كل الأحصنة الموجودة في العالم، وهذه الخصائص لا تتطابق بالضرورة مع الخصائص المجرّدة التي يتضمنها مدلول كلمة «horse» في الإنكليزية. لذلك يقول لوغوارن إن المقابلة الفعلية بين لغتين إنما توجد بين مصطلحين وليس بين كلمتين. لأن المصطلح عبارة عن تسميات ترجع مباشرة إلى المفاهيم المرتبطة بالأشياء. وهو يقوم على قاعدة المعرفة والاطلاع. في حين أنّ المدلول لا يرتبط بسِمات مادية يختصّ بها الشيء الذي تشير إليه عادة، بل إنه ينتج عن خيارٍ قامت به الأمة التي تتكلم اللغة، وذلك خلال تاريخ اللغة وبنياتها وتطوّر استعمالاتها. ويعطي لوغوارن مثالاً على ذلك كلمتي «غزال» و«ظبية» في إحدى اللغات الإفريقية المتداولة في التوغو. يتضمن مدلول الكلمة الأولى سمة «الذكاء» ومدلول الثانية سمة «الغباء». وتُبنى التشبيهات والاستعارات في هذه اللغة على هاتين السِّمتَيْن. في حين أنّ مدلول هاتين الكلمتين في العربية مثلاً لا يتضمن أياً من هاتين السمتين، ويحتفظ فيهما معاً بسِمة «الجمال»[2].

وإذا كنا نشدّد هنا على الرابط بين الكلمة والمصطلح والمفهوم الذهني، فلأننا نريد لفت الانتباه إلى أن الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية إنما تأتي بمصطلحات جديدة تدخل في بنيتها وتنخرط في تراكيبها القاموسية فترفد الفكرَ العربي بنتيجة ذلك بمفاهيم وتصورات ذهنية جديدة. فالمصطلح تسمية، والتسمية امتلاك، امتلاك للفكرة التي

2 انظر: Michel Le Guern, «Sur les relations entre terminologie et lexique «, Actes du colloque «Les terminologies spécialisées : approches quantitative et logico-sémantique «, Meta, 34-3, 1989, pp. 340-343.

ترتبط به وللشيء الذي تُمثله هذه الفكرة وتشير إليه[3].

المحور الاستبدالي

كذلك، عندما تُسهم الترجمة في وعي الإنسان لمحيطه والعالم الذي يعيش فيه ضمن مصطلحات جديدة (أو متجددة)، فإنها تعمل في الوقت نفسه على تعزيز وسائل التعبير الكلامية لديه عن هذا المحيط في اللغة التي يُترجم إليها، وهي العربية هنا.

وللدلالة على أن التعبير يزداد قوة بفعل الترجمة وما يستتبعها من تداولٍ بمصطلحات ومفاهيم جديدة، نعود إلى نظرية لسانية تعتبر أنّ اللغة عبارةٌ عن مجموعةٍ من الإشارات يرتبط بعضُها ببعض بواسطة علاقاتٍ مُحدّدة أصلاً. وتتوزّع هذه العلاقات في جميع اللغات الطبيعية البشرية على محورَيْن أساسيَّيْن هما:

أ. المحْور النظمي، وهو يُحدّد العلاقات بين الإشارات التي تؤلّف جملة أو عبارة معيّنة. وتُحدّ هذه العلاقات بأنها علاقاتٌ مُفارقة. فإشارة «تلميذ» وإشارة «أستاذ»، في الجملة السابقة مثلاً، ترتبطان فيما بينهما ضمن علاقاتٍ نظمية تُميّز كلَّ واحدة منهما عن الأخرى في السياق الواحد. وهذه العلاقات ذات طبيعة صوتية ومفرداتية ونحويّة.

ب. المحْور الاستبدالي، وتنتظم عليه العلاقات بين الإشارة الموجودة في المرسلة اللغوية وبين الإشارات الأخرى التي تنتمي إلى اللغة ذاتها. وهذه العلاقات - وهي علاقات تضادّ - تربط في ذهن المتكلّم والسامع الإشارات التي تنتمي إلى مرتبة مُعيّنة دون غيرها، والتي يُمكن أنْ تحلّ إحداها محلّ الأخرى (في المرسلة اللغوية الواحدة وبغض النظر عن دلالتها)، وذلك دون أنْ يطرأ خللٌ على النظام النحويّ. لنأخذ على سبيل المثال الجملة ذاتها: كلمة «يحبّ» ترتبط بعلاقات استبدالية مع «يكره»، «يمقت»، «يعشق»، «يطيع»، إلخ... كما أنّ الياء في الكلمةً نفسها ترتبط

3. لذلك، ينظر علماء النفس إلى اكتساب اللغة عند الطفل بوصفه مرحلة أساسية في حياة الإنسان ليس فقط من أجل التواصل مع الآخرين بل خصوصاً من أجل «استيعاب» العالم المحيط به، استيعاب العالم وامتلاكه واستبطانه في الذهن عبر وعي مضامينه والسيطرة على أسمائها. بالإضافة إلى ذلك يقول «سابير»: «رغم أن اللغة لا تعدّ في العادة مادة دراسة في العلوم الاجتماعية، فإنها تتحكم كثيراً بأفكارنا المتعلقة بالمسائل الاجتماعية [...]. ومن الخطأ تصوّر أن الإنسان يتكيّف مع واقعه دون استخدام اللغة، وأنّ اللغة هي فقط وسيلة عرضية لحلّ مشاكل الاتصال والتفكير. كل ما في القضية هو أن العالم الواقع مبنيّ بطريقةٍ لا واعية على أساس عادات الجماعة اللسانية».
A. SCHAFF, Langage et Connaissance, Paris, Anthropos, Points, 1969، ص98.

بعلاقات استبدالية كذلك مع «أ» (أُحب)، ومع «ت» (تحبّ)، ومع «ن» (نحب).

ما يهمنا هنا هو المحور الاستبدالي الذي يستطيع المتكلم أن يختار منه الكلمة الأفضل للدلالة على فكرة لديه أو شعور أو رؤية. فالعربي إذا أراد أن يقول إن فلاناً أحب فلانة وصادقها، يستطيع انتقاء إحدى الكلمات التالية وفق درجة الحب وطبيعته: أحبّ، عشق، هام، وَمَق، خالَى، صافى، خالص، خادن، انتخب، ألِف... إلى ما هنالك، وبين كل كلمة وكلمة فروقٌ ودقائق دلالية. وعندما تأتي الترجمة بمصطلحات جديدة، أو تضيف إلى كلمات قديمة أوجهاً دلالية خاصة، فإنها تقوم بإغناء اللغة المترجم إليها وتتيح للمتكلم بها التعبير عن فكره ووجدانه بوسائل لسانية أدقّ وأيسر.

دور الترجمة في مسار الإبداعية في اللغة

كلُّ كائنٍ بشريّ يعرف لغةً ما يتمتّع بالمقدرة على فهم جُملٍ وإنتاج جُملٍ أخرى لم يسمعها في هذه اللغة من قبل. وينطبق هذا الأمر خصوصاً على اللغة الأم وعلى الأطفال في موقف التعلّم. يدعو تشومسكي هذه الخاصة اللغوية باسم «الإبداعية»، وهو يجعل منها صفةً أساسية من صفات اللغة نفسها إنْ لم يكن صفتها الوحيدة. ويعرّفها هذا المفكّر الأميركي بأنها مقدرة اللغة على أنْ تُولِّد تراكيب نحوية بواسطة خوارزميات لا تضَع حُدوداً لطولها. أي إنها تستطيع أن تنتج عدداً لا متناهٍ من السّلسلات الجديدة انطلاقاً في البداية من مَخزونٍ صغير من العناصر.

عندما تضمحل حركة الترجمة وتتوقف النصوص المترجمة عن رفد اللغة بالكلمات والمصطلحات الجديدة (الجديدة في دالّها و/أو مدلولها) والتي لم تكن موجودة من قبل (لكونها تُعبّر في معظم الأحيان عن مفاهيم وجدليات تنتمي إلى لغات وثقافات أخرى)، فإنّ اللغة تفقد من حيويتها وتصبح خاصيةُ الإبداعية فيها معرقلة وروتينيةً وغير فاعلة. وفي هذا اضمحلالٌ لإمكانيات التعبير في اللغة وتعثّر في تطورّها، مما يدفع المتكلمين بها إلى هجرها واعتماد لغات أجنبية تقدم وسائل أكبر وخيارات أوسع للتعبير عن العالم الحاضر والتواصل في قضايا الواقع الحالي.

اللسان والكلام

يقول دي سوسور إن اللغة ذات طبيعة مزدوجة وتظهر في كِيانين، هما اللسان والكلام. فاللسان نتاجٌ اجتماعي يتحصّل من ملكة اللغة لدى الأفراد، وهو اجتماعي ومشترك لدى

أصحاب اللغة الواحدة ويوجد في ذهنهم. لذا يُقال «لسان العرب» واللسان الفرنسي، والإنكليزي،... للدلالة على هذا النظام (أو نظام الأنظمة) الذي يدير عملية بناء الخطابات وفهمها في كل لغة. أما الكلام، فإنه تحقيق هذا اللسان واستعماله في زمان ومكان محددين، وهو فردي وآني، وهو الذي من خلاله يُمكن معرفة اللسان ودراسته. والعلاقة بين اللسان والكلام مزدوجة ومتعاكسة، بمعنى أنّ اللسان هو الذي يُنظم إنتاج الكلام، ولكن الكلام هو الذي يبني اللسان ويطوره من خلال تداوله بين الناس. ما يهمنا هنا هو هذه النقطة الأخيرة. فالترجمة إلى العربية هي «تحيين» اللسان في نصوص جديدة ترجع إلى أفكار جديدة هي أيضاً، والعمل الترجمي إنما هو «كلام» يُسهم إسهاماً كبيراً في بناء اللسان وتطوير تراكيبه وتوسيع إمكانياته التعبيرية في عقول الناس وأذهانهم.

والجدير بالذكر هنا أن الاستعمال الجديد للّغة في عملية الترجمة يُمكن أنْ يكون من طبيعة الأنشطة الإبداعية - بالمعنى الواسع للكلمة، الذي يختلف عن إبداعية تشومسكي - وأن يندرج في إطار الكتابات الشعرية، والأدبية، ونصوص الاكتشافات العلمية الجديدة وغيرها، ونستطيع بذلك أن نعد الترجمة من النشاطات اللغوية التي تدخل في صلب اللغة (اللسان العربي) من أجل «تعنيفها» في المعنى الذي يعطيه «جان جاك لوسركل» لمصطلح «العنف في اللغة»[4].

أي ترجمة عربية؟

إذا كانت الترجمة إثراء للغة العربية وتطويراً لإمكاناتها كما تبينه النظرة التي ألقيناها عليها من خلال بعض مبادئ اللسانيات الحديثة، فإن السؤال الذي يُطرح في هذا المجال هو: أي نوع من الترجمات إلى العربية هو الأنجع في هذا المجال؟ ذلك أن عملية نقل النص من لغة إلى أخرى تحصر المترجم بين قطبين متباعدين هما المؤلف الأجنبي (وما يمثله من ثقافة «أخرى») والقارئ المحلي (وما يتبناه من موقف محليّ). فالنظريات العلمية والنقاشات الأخيرة بين الاختصاصيين تركز على موقف المترجم وميله إلى هذا القطب أو ذاك. هناك نص مترجم يُحافظ على اللون المحلي للأصل ويقدم الآخر في إطاره الخاص به وبكل تفاصيله، وهناك نص مترجم آخر يرعى توقعات القارئ في اللغة المترجم إليها

4 جان جاك لوسركل، عنف اللغة، ترجمة وتقديم محمد بدوي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة والجزائر، المعهد العالي للترجمة، 2005.

ويعتدّ بخصوصيات ثقافته من أجل خدمته المعرفية وليس من أجل الحفاظ على خصوصيات المؤلف وأبعاد حضارته.

في ما يخصنا، ولكي تقوم الترجمة بدورها كاملاً في تطوير اللغة العربية والنهوض بها، نعتقد أن النص المترجم الذي يميل إلى القارئ العربي ويعتدّ بكفاياته اللغوية ومتطلباته المعرفية هو الذي يستطيع الولوج بسهولة إلى ذهنه والذي يصل في نهاية الأمر إلى تطوير اللسان العربي عبر إنتاج وسائل تعبيرية جديدة ترتبط بالواقع المعاش وبالمعارف المعاصرة.

نهاية القول، صحيح أن الترجمة تدعم اللغة وتطور اللسان من خلال عملها في نقل المعلومات والمعارف، لكنها لا يمكن أن تُسهم منفردةً في بناء الثقافة العربية ولا أنْ تعزّز لوحدها الهوية اللغوية التي ننتمي إليها. فالترجمة ليست سوى حلقة في سلسلة تبدأ بتحصيل المعرفة في اللغة الأم (مترجمة كانت هذه المعرفة أم لم تكن) وتنتهي بالانتماء إلى الثقافة، مروراً ببناء المنظومة الفكرية وتمتين الانتماء إلى الهوية، الفردية منها والاجتماعية. وليست الترجمة سوى عاملٍ من عوامل التطوير والتقدم في استعمال اللغة المترجم إليها وفي مجال الفكر والمعرفة. لذلك، ومن أجل أن يكون للترجمة دورها الفعال في تطوير لغة الضاد ودخول أبنائها في ركاب التطور الفكري، لا بد من أن «يحمل» أبناءُ اللغة الهدف (المثقفون والباحثون في مختلف الدول العربية) الفكرَ المنقول بواسطة الترجمة، ونعنى بكلمة «يحمل» هنا أنّ عليهم أنْ يتدبّروا مضامين هذا الفكر فينقدوها ويُخضعونها للبحث والتفسير والتحليل حتى تدخل في سياق منظومتهم الفكرية، مما يجعلها تتلاءم مع إطار تراثهم وثقافتهم العريقة، ومن أجل أن تتلاحم الأفكار المنقولة مع شبكة الأفكار الراسخة في سياق التيارات الاجتماعية والفلسفية والحضارية المعاصرة[5].

أخيراً

اللغة تتكلم، كما يقول هايدغر. لكن، كي تتكلم، لا بد من وجود من يتداولها، بالترجمة كما بغيرها.

5 انظر: بسام بركة، «الترجمة وأحوالها في دُول مجلس التعاون»، في الثقافة والتكامل الثقافي في دُول مجلس التعاون: السياسات، المؤسسات، التجليات – التقرير العربي التاسع للتنمية الثقافية، بيروت، مؤسسة الفكر العربي، 2016، ص358-343.